

منهج الهداية

رسالة في هدف ومنهج الدعوة الربانية

محمد سليمان القائد

دار الكلمة الطيبة

Goodword.com

Tel. +911141827083

Fax:+911145651771

info@goodwordbooks.com

الطبعة الثالثة: 2013م.

ISBN:978-9959-0-4

الإيداع المحلي

377-212

الدار الوطنية للكتب

طبع في دار الطالب

مقدمة الطبعة الثالثة

يسعدنا أن نقدم الطبعة الثالثة من كتاب "منهج الهداية" للقارئ العربي، وهو جملة من المقالات كتبها المؤلف في أواخر الثمانينات من القرن الماضي، ونشرت لأول مرة بالقاهرة سنة 1991م، وهذا الكتاب ثمرة حوار بناء جرى بين المؤلف والعديد من الشباب الليبي المتحمس لخدمة دين الله الإسلام، وتم بعد اكتمال رؤية المؤلف المنهجية الحق لنصرة دين الله نظرياً وعملياً، فقد قضى الشيخ أغلب سنوات عمره بين الكتب والأسفار، ثم انخرط في عمل الدعوة والتعليم الديني المباشر في رواندا بقلب أفريقيا لسنوات طويلة، وكان من فضل الله عليه أن عاين في هذه التجربة الدعوية صدق رؤيته الفكرية، وتحقق فتح ونصر الله بدخول عشآلاف للإسلام ، وشاهد بأمره عينه الصدق العملي للأفكار التي آمن بها وعمل في ضوئها.

المؤلف يطرح فكراً تجديدياً وبناءً ، يدعو من خلاله إلى توجيه جهود الشباب المسلم الصادقة إلى ميدان العمل الحقيقي، بعيداً عن أساليب ردود الفعل النابعة من الدوافع السلبية، مقدماً تصوراً متكاملاً لإظهار الرسالة القرآنية، من خلال بناء وعي حقيقي وصحيح لهدف ومنهج الدعوة الإسلامية في ضوء التحديات القائمة في هذا العصر، ويقدم من خلال هذا الكتاب معالجة فكرية لجذور التطرف في الفكر الإسلامي المعاصر، السبيل الحق للقضاء على ظاهرة الإرهاب والتطرف باسم الإسلام، الذي عانت منه العديد من الأمم والشعوب، ولاسيما في بلدنا الحبيب ليبيا، فقد نغص علينا التطرف والمغالاة فرحة النصر، ويعمل على وأد أحلامنا في بناء وطن كريم يسع الجميع وننعم فيه بالأمن والاستقرار والسلام.

والمؤلف عندما يتناول مسألة الخروج على السلطة أو الثورة، لا يتناولها على إطلاقها، بل يقتصر عليها في ميدان العمل والانخراط في نصرة الدين فهو لا يقر بصحة من اعتبر الكفاح السياسي المسلح السبيل الأمثل لإظهار ونصرة الدين، ويطرح الهدف الحقيقي للرسالة القرآنية هو الإنذار والتبشير بالحقائق الأبدية (الجنة - النار)، وليس مسألة رفع الظلم والاضطهاد المؤقت والمحدود في الحياة الدنيا.

لقد عرفت المؤلف منذ نعومة أظفاري، ولازمته في ريعان الشباب وتقاسمنا محنة السجن، والتي قضى فيها نحبه عام 1996 م، وأنا أني والله أشهد بأنني رأيت فيه من

الصفات ما يصعب علي حصرها، وهي صفات الرجل المؤمن المجاهد الصادق، الذي وهب نفسه وعرضه لله وخدمة دينه وإعلاء كلمته، فقدم مستقبل الدين على مستقبله وضحي بالغالي والنفيس لإظهار رسالة القرآن، ويكفي أنه انبرى للدعوة إلى الله في أحلك فترات العمل الإسلامي في ليبيا ففي الثمانينات فتح بيته وصدره للشباب يلقاهم ويجتمع بهم ويجالسهم ولم يمنعه عن ذلك قسوة النظام ولا رجاء الأهل والأحباب .

فجزى الله المؤلف، وجزى أهله وذريته كل خير، عما تحملوا من العبء الأكبر من تلك التضحية الغالية.

طارق الشارف بن ساسي

طرابلس 2013 م

saadtareq@gmail.com

facebook: Tareq Ben Sasi

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا
مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مُّكَثِّينَ فِيهِ أَبَدًا
(3)﴾

(الكهف : 1- 3)

وصلّى الله على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد إن هذه الرسالة محاولة للإجابة عن السؤال التالي : ما هو هدف الدعوة الإسلامية الحقيقي ومنهج الهداية إليه في ضوء القرآن وتعاليم الرسول الكريم وسيرته الشريفة ؟

والمؤلف ينطلق من الشعور بوجود قضية نظرية وعملية مُلحّة، وهي فقدان منهجية فكرية صحيحة تتمتع بالمصداقية الشرعية والعقلية بين صفوف العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، ويرى أن وضع هذه المنهجية من أُلزم الواجبات لإحياء رسالة القرآن، ونصرة الدين الإلهي على أكمل وجه. ولعل من أخطر أزمات الفكر الإسلامي المعاصر، عدم وضوح هدف رسالة الدعوة، الأمر الذي أدّى إلى الحيرة والتمزق والاختلاف وضياح الأجيال الجديدة المتحمسة، وتسخير طاقاتها وإمكاناتها في غير المجال الصحيح، ومهمة هذا الكتاب محاولة بالدرجة الأولى لإنقاذ سفينة "الدعوة" من الغرق بعد أن أخذها تيار الفتنة الجديدة بعيداً عن هدفها الصحيح. وكأي محاولة تعمل ضد تيار الفتنة الجارف فإن المهمة شاقة ولا يمكن النجاح في إنقاذ سفينة الدعوة حتى تصل إلى بر الأمان، إلا بعون الله وحده.

ومن أجل توضيح أقرب، لفكرة هذا الكتاب أريد أن أضع الحقائق التالية أمام القارئ:

أولاً : إنَّ في مقدمة أهداف هذه الرسالة إثبات أن منهج الهداية الربانية يقوم على أساس الوعي بخطة الله، المبينة في كتابه وتعاليم رسوله، وتبيين هذه الخطة الحقائق الأبدية التي تقتضى على الداعية أن يصوغ فكره في ضوءها، وأساس هذه الحقائق أننا مخلوقين للآخرة، وهذا هو الهدف الأساسي الذي يجب أن نركز عليه كافة نشاطاتنا، والأمور الأخرى موقفنا منها يعتمد على الظروف والأحوال التي تحيط بنا في وقت ما، وفي مكان ما.

إنَّ فوز الإنسان وخلصه يكمن في إقامته العلاقة الصادقة والصحيحة بالله، فإذا نجح في هذا الأمر فإنه قد وضع الشروط النفسية لصالح أعماله وسائر نشاطاته الدينية والدينيوية، بما في ذلك الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية – فهو يتحرك في دنيا تضم كل هذه المؤثرات والجوانب، وسوف يكون موقفه منها على ضوء معيارين، المعيار الفكري الذي يؤمن به والمعيار الثاني موضوعي نابع من الواقع الذي يتحرك فيه، ففي المعيار الأول الاجتهاد للبحث عن الصواب النظري، ولا ينجح العمل في شروطه الإسلامية والموضوعية إلا بأن يكون صواباً من الناحية النظرية والناحية العملية بعد أن يقوم على أساس الإخلاص الكلي والعلاقة الصادقة مع الخالق. تلك هي خلاصة الحكمة التي من وجدها أصاب خيراً عظيماً :

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة : 269)

ذكر الإمام الطبري في تفسيره معنى كلمة الحكمة في الآية "الإصابة في القول والعمل" (577/ 5) أي موافقة الصواب النظري للصواب العملي.

والملاحظة المهمة الأولى على الدراسات التي تناولت منهجية الدعوة هي وقوعها في خطأ جسيم عندما تعرضت إلى الدعوة من خلال المؤسسة السياسية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي بمعزل عن الإطار الفكري النظري للدعوة الإسلامية والخطة الإلهية التي بسببها خلق الإنسان والحقيقة أن خطة الله واضحة في كتاب الله الذي هو في صميمه رسالة من الله للنوع البشري وهي في جوهرها قمة الرحمة والشفقة والتذكير:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(فاطر : 5 - 6)

ولكن لأسباب عديدة ضاعت حقيقة الرسالة القرآنية في الفكر الإسلامي المعاصر وأخطر من ذلك بروز البدعة الجديدة وهي ظهور تفسير سياسي لرسالة الدين جعل المسألة السياسية تنال الدرجة الرئيسية في الأهمية وفي ضوء ذلك فُسِّرَت كل الحقائق الدينية وصارت تابعة للقضية السياسية وتحولت (السلطة) في هذا التفسير فصارت هي الهدف المطلق لإقامة (رسالة الدين) أي تحول الجزء الإضافي في الدين إلى الحقيقة الأساسية فيه، فالسياسة ذات أهمية ولكن ليست هي حقيقة الدين الأساسية وهذا الكتاب يحاول أن يبين نوعية الخطأ، الذي وقعت فيه جهود المصلحين في العصر الحديث عندما تحولت السياسة إلى هدف الدعوة الأصلي وضاعت قضية الآخرة. وتحاول هذه الدراسة نقد الاتجاه السياسي في تفسير وفهم الدين والقضايا المتعلقة به، فالمعالجة في الأساس استهدفت القيام بتحليل نقدي للأفكار غير الصحيحة التي نشأت تحت تأثير التفسير السياسي للدين وأيضاً إثبات القضايا التالية :

- عدم مشروعية الخروج السياسي باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو باسم الدين عموماً. بل هو في الحقيقة يؤدي إلى مس الدين في جوهره كرسالة إلهية تتطلب الجو الملائم لتصل إلى عباد الله بدون عوائق وعقبات من طرف الدعاة على الخصوص.

- عدم مصداقية التفسير السياسي للدين ونقد مفهوم (الحاكمية) وفق تصور المودودي وإثبات أن هذا التفسير لا يتطابق مع القرآن والسنة، وأن أساسه الفكري لا يقوم على دليل أو حجة شرعية.

- إثبات أن منهج الدعوة إلى الله لا يقوم على أساس التكفير والإدانة والحكم على عباد الله بل يقوم على أساس النصيحة والتذكير والحوار وأن طابع الدعوة الإسلامية السلم لا العنف وهي في جوهرها رحمة لا نقمة.

- التأكيد على أن منهج الدعوة الحقيقي يؤخذ على أساس عقلي ، قائم على التفكير واستخدام العقل في استقلالية عن التقليد والتعصب. كما أن تعاليم الدين تؤخذ من مصادرها عن طريق التدبّر والاعتبار والدراسة العميقة على أسس منهجية لمن يتصدى إليها حتى لا يقع في محذور التأويل الخاطئ.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يوقظ إحساس القارئ بأهمية الخطة الإلهية وضرورة العمل في ضوئها وكذلك اكتشاف القارئ للقرآن كرسالة إلهية وكتاب دعوة بالدرجة الأولى فإن المؤلف يعتبر نفسه قد نجح في تبليغ ما يريده للقارئ.

ثانياً : لعل بعض الذين يتجاوزون موضوع المعالجة الأساسية للقضية المطروحة وي طرحون تساؤلات بخصوص الأهداف القومية بصورة خاصة، ومن أجل دفع الالتباس الذي ربما يحدث من هؤلاء أريد أن أؤكد أن المعالجة قد تركزت في جوهرها على منهج الداعية بالدرجة الأولى وعلى مضمون الدعوة والجوانب المتعلقة بصورة مباشرة بهذه القضية – أمّا ما يتعلق بالأهداف الوطنية والقومية فإنّ معالجتها تتركز إمّا بصورة مستقلة كلياً عن الدعوة، أو بصورة مشتركة معها. ففي الحالة الأولى لا حاجة بنا إلى الخوض فيها، وفي الحالة الثانية نريد أن نوضح النقطة التالية :

إنّ الموضوع المطروح في مفهوم الجهاد المتعلق بالدعوة قد بينا أن قانونه الدفاعي فيه خيارات متعددة وأساسه دائماً رؤية الهدف الأصلي للرسالة والتخطيط على ضوئه وإذا كانت الحالة القائمة تتمثل في صورة عدوان خارجي على الأمة فإنّ الدفاع الوطني والقومي هنا مشروع بصورة طبيعية ويدخل الدفاع في مفهوم الجهاد الإسلامي، وبكفي الآية القرآنية التالية دليلاً على ذلك:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(البقرة : 190)

ففي كل الأحوال فإنّ القرآن يؤكد أنّ القتال المشروع صورة من صور الدفاع ضد من بدأ العدوان : (وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (التوبة : 13)

ثالثاً : لقد أحاطت بكتابة هذا الكتاب ظروف عديدة وأستطيع أن أتذكر أن أول ما بدأت أسجل أفكارى على الورق نتيجة مناقشات مستمرة كانت تدور بينى وبين بعض الشباب وكانت النتيجة النهائية للمناقشة شعورى بأهمية وضع منهج تفكير للداعية، وكانت بعض فصول الكتاب كتبتها استجابة لدعوة من بعض الأخوة لتوضيح قضية ما، ولا شك أن فترة العمل التي قضيتها في المنطقة الاستوائية الإفريقية (رواندا) . بالمركز الثقافي الإسلامي بكيغالي كانت عاملاً أساسياً في أن أولى هذه القضية الاهتمام اللازم خصوصاً أن في المركز المذكور قد تركز واجبي في العمل في مجال الدعوة وإعداد الدعاة والإشراف عليهم وكنت خلال ذلك قد شعرت بحاجة الدعاة إلى منهج يوضح معالم طريق الدعوة، ومن هنا فإنني أنتهز هذه الفرصة لأقدم هذا الكتاب إلى أولئك الدعاة الذين عملت معهم في فترة من أخصب فترات عمري ولا أنسى أن أذكر بالشكر أولئك الذين ساعدوني في هذه المهمة من العاملين معي وعلى رأسهم مدير المركز الإسلامي الأستاذ **محمد بشير المغربي** والأستاذ **الطاهر الشويهي** الأمين العالم للهيئة المشتركة لتأسيس المراكز الثقافية الإسلامية إذ وجدت منهما كل مساعدة في سبيل تأدية واجبي بما لا يسعني ألا أن أذكر لهما هذا الصنيع، ولكل أعضاء الهيئة مهدياً لهم هذا الكتاب ولكل الدعاة الذين يعملون على نصرته الإسلام وعلى تبليغ رسالة القرآن عسى أن تكون هذه المحاولة المتواضعة منهجاً أولياً ينير سبيل العمل في طريق الهداية الربانية هداية النبي العربي الخاتم: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9))

(آل عمران : 8-9)

محمد سليمان القائد

القاهرة في 16/8/1990

(1) الرسالة القرآنية

إن بعض المفكرين المسلمين المعاصرين لم يكتشفوا حقيقة الرسالة القرآنية، ولأسباب خاصة فسروا المهمة التي أرسل الله من أجلها الرسل تفسيراً سياسياً فجعلوا هدف إقامة الدولة الإسلامية هو الهدف الأصلي - وجعلوا هدف إقامة النظام الإسلامي هو هدف الرسالة الإسلامية الأول، ومع أن هذا الهدف لا غبار عليه فيما يبدو من الناحية الظاهرية، إلا أنه لو سلمنا بهذا سوف يطرأ تحريف كلي لحقيقة الرسالة القرآنية التي قامت على أساسها خطة الله للإنذار النوع البشري :

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

(الفرقان : 1)

والتبرير بأن الرسول أقام دولة بالمدينة استدلال خطأ على هذه الدعوى. فالدولة وهي مؤسسة سياسية - لم تكن هدفاً أصلياً في وقت من الأوقات لنبي من الأنبياء ويكفي أن نعلم أن عدداً محدوداً جداً منهم تسنى له إقامة سلطة إسلامية كاملة فهل كان سائر الأنبياء على غير الهداية الكاملة أو أنهم قد فشلوا في مهمتهم. والحقيقة أن من يجعل الدولة هدفاً أصلياً ومقياساً نهائياً لرسالة الأنبياء سوف يقع في هذا الخطأ ويتوهم أن الرسل الذين لم يؤسسوا دولة كانوا على غير الهداية الكاملة والله سبحانه وتعالى يؤكد أنهم كانوا على الهداية وأمر الرسول بالإقتداء بهم :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا نِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)

(الأنعام : 90)

ولعل هذا ما ينفي الإدعاء الأجوف بأن الرسائل السابقة للأنبياء (ويضرب عادة المثل برسالة المسيح عليه السلام) رسائل ناقصة لعدم ظهور المؤسسة السياسية فيها والملاحظة المهمة على الدراسات التي تناولت منهجية الدعوة هي وقوعها في خطأ جسيم، عندما تعرضت إلى هدف الدعوة من خلال المؤسسة السياسية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، متجاهلين الإطار النظري للدعوة الإسلامية كما هي في كتاب الله وسيرة وتعاليم رسوله الكريم، فالحقيقة الأساسية أن الداعية إلى الله لا يصوغ فكره على ضوء التاريخ بل يقوم فكره على دراسة الهدف الجوهرية النابع من المصادر الأساسية

لرسالة الدعوة بالدرجة الأولى ومعنى هذا أنَّ الداعية من اكتشف الحقيقة عن طريق الوعي بحقيقة الدين واكتشاف (إسلام العقيدة) لا (إسلام التاريخ) فالوعي بالحقيقة غير الوعي بجوانبها الإضافية التي تظهر في مرحلة ما دون مرحلة أخرى. إنَّ كافة الأنبياء قامت رسالتهم على الحقيقة الأصلية للدين وفي نفس الوقت نجد أنَّ كل نبي ترك لنا تاريخاً متميزاً تبعاً لظهور الحقيقة في تاريخه الخاص به ولا نستطيع أن نتخذ تاريخ نبي ما كمعيار نهائي لحقيقة الدين، فهناك من الأنبياء من قام بتبليغ الرسالة ولم يؤمن به سوى نفر قليل، وهناك من آمنت به جماعة أقامت في نفسها شعائر الدين المتعلقة بالعبادة فقط، وهناك من وصل إلى مرتبة أعلى فظهر الدين على مستوى دولة طبق فيها الدين الشامل للمعاملات، وهناك من تأمر عليه قومه ومضى إلى سبيل ربّه شهيداً، كل هذه الصور هي عبارة عن الجوانب الإضافية المتعلقة بحقيقة الرسالة التي في جوهرها الإنذار من اليوم الآخر والدعوة إلى التوحيد:

(رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

التَّلَاقِ)

(غافر : 15)

والملاحظة العامة التالية إن فكر الدعوة لا يقوم على ردود الفعل الوقتية التي قد تكون في مرحلة ما ذات أهمية متعلقة بظروفها، ذلك لأن الداعية إلى الله هو من يعمل تحت تأثير الحقائق الأبدية وهو من قد أدرك بوضوح خطة الله التي وضعها لإنقاذ عباده من النار فيعمل على منهج النبوة وهداها الحق: (قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ)

(آل عمران : 73)

فما هي حقيقة الرسالة القرآنية ؟

إنَّ في معرفة الجواب عن السؤال السابق ما يحدد نوعية المهمة التي ينبغي علينا أن نعالج كافة المسائل الأخرى في ضوءها.

ولكن لا حاجة بنا إلى أن نستنتج الجواب أو نعتمد على القياس والظن لأنَّ القرآن يقدم لنا هذا الجواب بصورة واضحة وقاطعة ويكفي هذه الآيات لذلك:

• (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

(الفرقان : 1)

- (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) فَيَمَّا لِيُذْكَرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا)

(الكهف : 1 - 3)

- (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)

(الشورى : 7)

- (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69) لِيُذْكَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(يس : 69 - 70)

- (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

(ص : 87 - 88)

- وغير هذه الآيات التي تحدد بصورة لا مجال فيها للاختلاف مهمة الرسالة القرآنية.

وهي في نفس الوقت مهمة النبي العربي خاتم الرسل (صلي الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47))

(الأحزاب : 45 - 47)

إن الإنذار من الآخرة هي حقيقة الرسالة القرآنية والمهمة الأصلية التي تضيء سائر جوانب هذه الرسالة.

إن اعتبار الإنذار من الآخرة هو المحور الأساسي للدعوة جاء نتيجة أن سعى الإنسان الأبدي يتقرر في الآخرة طبقاً لأعماله في الدنيا، وليس هناك خيار لنجاته سوى دين الإسلام، وأي أسلوب في الدعوة يهمل قضية الآخرة لن يَفِ بالواجب الأساسي، وهو إطلاع الناس على حقيقة الاختبار الذي يواجه الإنسان، فالهدف النهائي هو أن يعلم الإنسان أنه سوف يقف أمام خالقه للحساب:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10))

(التغابن : 9 – 10)

ومن هنا ندرك أن هدف الرسالة القرآنية ليس هدفاً سياسياً كما شاع في هذا العصر، بل هو هدف أخروي لقيام الحجة وتبليغ الرسالة، ولهذا فإن المهمة تنتهي عند البلاغ :

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)

(الشورى : 48)

وفي نفس الوقت هي دعوة مجردة من أي حقوق مادية بالنسبة للدعاة :

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

(الأنعام : 90)

وهذه المهمة ليست هينة بل هي أعظم مهمة على وجه الأرض ويتخذ الله من هؤلاء المبلغين شهداء يوم القيامة :

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(البقرة : 143)

وهي أعلى مرتبة وتأتي بعد مرتبة النبيين :

(وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(الزمر : 69)

ونصرة الله متحققة بصورة مستمرة للذين يقومون بهذه المهمة في الدنيا والآخرة :

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

(غافر : 51 – 52)

الرسول يبلغون الرسالة إلى الأمم

إنَّ عهد الله وميثاقه لتبليغ رسالته للنوع البشري ظل أمانة ومسؤولية مستمرة يقوم بها الأنبياء وأتباعهم من بعدهم الذين ورثوا الكتب السماوية:
(يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36))

(الأعراف : 35 - 36)

وسبيل النجاة الوحيد هو إقامة التوحيد الخالص وهي الغاية التي خلق الله من أجلها الإنسان :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(الذاريات : 56)

ولأهمية الإنذار وإعلام البشر بخطة الله ونظامه فإنَّ الله سبحانه وتعالى اختار في الماضي بني إسرائيل لتأدية مهمة الشهادة على الأمم في الماضي وتوالت رسالة النبوة فيهم لهذه المهمة :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24))

(السجدة : 24)

ولما طال الأمد على بني إسرائيل قست قلوبهم وضيعوا الرسالة واقتربوا جريمة الكتمان :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

(البقرة : 159)

وما حل ببني إسرائيل في التأريخ كان تنفيذاً للعقوبة الإلهية العادلة، وهي جزاء لكتمانهم رسالة الله وإحجامهم عن تبليغها بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق لذلك : (إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ (187))

(آل عمران : 187)

ويقص علينا القرآن بداية العهد القديم الذي عقده مع نبي الله إبراهيم عليه السلام :

(وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

(البقرة : 124)

وكان هذا جوهر العهد القديم الذي أبرم مع أهل الكتاب، فلما تولى عنه أهل الكتاب بعث الله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الرسول الخاتم لكي يقوم بمهمة التبليغ وتقوم أمته من بعده بهذا الدور إلى يوم القيامة :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)

(البقرة : 143)

ومعنى "وسط" أن يكون أتباع الرسول "وسط" بين الله وخلقه تماماً كما هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وسط" بين الله والأمة الإسلامية.

وقال المفسر المعروف، أبو حيان في تأويل الآية : " لتتقوا إليهم ما علمتموه من الوحي والدين كما نقله رسول الله ﷺ "

(البحر المحيط 1 / 422)

وذكر وهب بن منبه وصف الله لأتباع وأمة الرسول الخاتم في التوراة : " فرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل "

(البداية والنهاية)

ومعنى ذلك أن الله قد فرض على هذه الأمة الدعوة التي فرضها على الرسول :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(يوسف : 108)

قال الربيع بن أنس : " حق على من اتبع رسول الله أن يدعو كالذي دعا إليه رسول الله (ﷺ) وأن ينذر بالذي أنذر " وعن معمر بن قنادة : في قوله تعالى :

(وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)

(الأنعام : 19)

إنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله " وعن محمد بن كعب في تأويل الآية قال : " من بلغه القرآن فقد بلغه محمد (صلي الله عليه وسلم) ".

(تفسير ابن كثير 2 / 12)

وأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفيد وجوب تبليغ الرسالة وتأديتها عنه ومن ذلك قوله لأصحابه:

"إنَّ الله بعثني رحمة للناس كافة فأدُّوا عني رحمكم الله ولا تختلفوا"
رواه الطبراني (عن مسور بن مخرمة).

وغير ذلك من الأحاديث المشهورة الجارية على الألسن مثل قوله : "فليبلغ الشاهد منكم الغائب" وقوله: " بلغوا عني ولو آية " وقوله: "لإن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم " وقوله: " أنتم شهداء الله في الأرض".

إنَّ سبيل نجاة الإنسان الوحيد هو قبوله الإسلام وهو دين الرحمة التي أرسل بها الرسول لكافة البشر، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) . والقرآن هو المصدر الوحيد لهداية (الإسلام) دين الله الحق الذي أرسل به كافة الرسل، وذلك بعد أن فقدت سائر الكتب السماوية مصداقيتها الإلهية لما حدث فيها من تحريف بيد الإنسان، فالقرآن وحده المصدر الموثوق فيه للهداية الربانية، هداية الإسلام . ومسألة تبليغه للناس أهم مسؤولية تقع على عاتق الأمة الإسلامية، لكي يتسنى للناس معرفة دين النجاة من العذاب الأبدي، وبذلك وحده تقوم عليهم الحجة ويكونوا على بينة تامة من أمر الله، وما كان الله ليعذب الناس بدون إقامة الحجة : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) ولقد تواصلت الرسالات السماوية في النوع البشري لهذه المهمة بالدرجة الأولى.

الرسالات السماوية

كانت أول رسالة أرسلها الله للنوع الإنساني هي رسالة نوح عليه السلام وذلك في الأرض الواقعة بين دجلة والفرات، وكانت أهلةً بذرية آدم عليه السلام بعد خروجه وزوجته من الجنة.

ويتضح – من القرآن – أن قوم نوح كانوا يقتربون جريمة الشرك فدعاهم نوح إلى توحيد الله بالعبادة، ولكنهم أصرُّوا على الشرك ولم يؤمن منهم بنوح سوى عددٍ قليل، فأمر الله نوحاً بأن يصنع سفينةً هائلةً يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، ثمَّ حلَّ العذاب الإلهي في شكل طوفانٍ هائلٍ أغرق الأرض ومن فيها، ولم ينجُ إلا من ركب مع نوح في السفينة، ولقد سجل القرآن نهاية قوم نوح :

(فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

(الأعراف : 64)

وبعد هلاك قوم نوح استخلف الله بعدهم قوم عادٍ وكانوا يسكنون الأحقاف جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قد اشتهروا بضخامة أجسامهم، وطول أعمارهم، وشدة بطشهم، ومتانة مساكنهم التي كانوا ينحتونها في الجبال، وانتشرت عبادة الأوثان بينهم، فظهر بينهم رسول الله هود عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله فرموه بالسفاهة وقد ردَّ عليهم قولهم في قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68))

(الأعراف : 67 – 68)

ولكن قوم هود قد أصروا على تكذيب رسولهم الناصح الأمين فكانت عاقبتهم محزنة إذ أرسل الله عليهم ريحاً :

(تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ)

(الأحقاف : 25)

وبعد هودٍ أرسل الله نبيه صالحاً عليه السلام إلى قوم ثمود في شمال الجزيرة العربية وجعلهم الله خلفاء بعد قوم عادٍ، وقد دعاهم صالح إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان فكذبوه فلم يكن مصيرهم بأفضل من مصير قوم نوح وقوم هودٍ، إذ أرسل الله عليهم الصيحة فلم ينج منهم سوى المؤمنين :

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

(النمل : 52)

فنهاية الأمم المكذبة بالرسول – كما يبدو من الآية – كانت متشابهة وهي الهلاك المبين :

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(المؤمنون : 44)

وهكذا فلقد سجل القرآن نهاية الأمم التي رفضت الحقيقة الإلهية، وفي كل مرة كان الشرك يعود ليسيطر على الحياة الإنسانية بعد انقراض الموحدين الذين كانوا قلة في كل العصور التاريخية حتى ظهور رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) إذ كان مجيئه نقطة تحول في التاريخ البشري لأن الله أراد نصرته نصرة خاصة، وإظهار دينه عالمياً كما قال سبحانه:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

(الفتح : 28)

تبليغ الرسالة

إن تبليغ رسالة الإسلام أهم مسؤولية في خطة خالق الكون، ولهذا أنزل الكتب السماوية، وأرسل الرسل :

(رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(النساء : 165)

وفي ضوء هذه الخطة أرسل الله الرسول العربي الخاتم (محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) للناس كافة) :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سبأ : 28)

ولقد حمل الله أتباع النبي الخاتم مسؤولية تبليغ الرسالة من بعده وذلك لإقامة الشهادة وإتمام الحجة فقال :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(الحج : 78)

ولقد بلغ الرسول رسالة الإسلام كما أمره الله بدأ بقومه العرب ثم من يليهم من الأمم، ولقد أرسل وفوداً ورسائل إلى ملوك عصره يدعوهم للإسلام، وعلى سبيل المثال: كتب إلى هرقل هذه الرسالة :

" من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد ! فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(آل عمران : 64)

وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بذل الصحابة كل ما في وسعهم من أجل تبليغ الرسالة في جميع أنحاء المعمورة، وبكل ما يملكون من وسائل في ذلك الوقت وبفضل ذلك دخل الناس في دين الله أفواجا" .

ومسؤولية تبليغ الرسالة لا زالت قائمة حتى قيام الساعة .

ولا زال أتباع الرسول العربي هم المسؤولون عن ذلك في كل مكان، ومعلوم أن إتمام الحجة، وإقامة الشهادة لا يتم إلا بالجهاد في تبليغ هذه الرسالة عن طريق الإنذار والتبشير أسوة بعمل الرسول حتى يتهيأ لكافة الناس الاستعداد لليوم الآخر عن طريق الإيمان والعمل الصالح وحين يتخلّى المسلمون عن أداء هذا العمل الهام لن يكون لأي عمل آخر أهمية عند الله، والقرآن قد نبه على أن اللعنة تحيق بمن يقترب جريمة الكتمان للبينات بعد نزولها.

وما حلّ ببني إسرائيل في التاريخ كان تنفيذاً للعقوبة الإلهية العادلة. وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَبِيسَ مَا يَشْتَرُونَ)

(آل عمران : 187)

إنك لو درست القرآن بدون خلفيات وأفكار مسبقة فستجد أن أعظم قضية في القرآن هي قضية الآخرة، وأهم مسؤولية هي إعلام الناس بهذا النبأ العظيم ومضمون هذا النبأ أن الإنسان سوف يقف أمام خالقه ليحاسب عن أعماله :

(وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41))

(النجم : 39 - 41)

فمن عمل صالحاً فسوف ينعم بدار السلام ومن أساء وصرف حياته في غير طاعة خالقه فسوف يصلى النار الأبدية لا يموت فيها ولا يحيا، ولهذا السبب فإن مسؤولية إعلام البشر بهذه القضية تقع على حملة الكتاب الإلهي (القرآن الكريم) ويقوم أتباع الرسول بهذه المهمة نيابة عنه لأن الله يريد من الإنسان أن يكون على بينة كاملة وأن يكون في نفس الوقت قد وجد من يبلغه في كل وقت بهذه الحقيقة ذات الأهمية البالغة. ومسألة تبليغ الرسالة تنال أهمية بالغة حتى عند النفير العام :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

(التوبة : 122)

ورد في سبب نزول الآية السابقة أنَّ المسلمين من القبائل العربية كانوا يفدون إلى المدينة حيث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للمشاركة في القتال الدائر ذلك الوقت ضد الروم ونظراً لأنهم كانوا يعيشون في أوساط المشركين الذين لم يعتنقوا بعد الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى أمر أن تكون هناك طائفة من كل فرقة منهم تقوم بتبليغ رسالة الإسلام كتب المفسر ابن كثير في تأويل الآية :

قال ابن عباس : "كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي (صلى الله عليه وسلم) فيسألونه عما يريدون من أمور دينهم ويتفقون في دينهم ويقولون للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما تأمر عشائركم إذا قدمنا عليهم، فقال فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله وبيعهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم، حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخبرهم وينذرهم قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة."

(تفسير ابن كثير 474/3)

فالإسلام هو قبل كل شيء (دين الرسالة) وكما يعرف عالم الاجتماع ماكس مولر (Max Muller) دين الرسالة فيقول : " هو الدين الذي يسمو فيه نشر الحق وهداية الكافرين إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده ... إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية وتعرف أفراد الجماعة الإنسانية بما يعتقد أنه الحق" (توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص 25)

إن عذاب الله في غاية الشدة ولا حدود له .. ولا نهاية له .. وهو حق وسيحيط بكل نفس لم تسلم له في الحياة الدنيا فمن يعبر بوابة الموت دون هداية الإسلام سوف تلحقه الخسارة الأبدية :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(آل عمران : 85)

إن أغرب واقعة في تاريخ الإسلام هي اختفاء فكر الدعوة من العلوم الإسلامية حتى إنك تجد كتب الحديث والفقه شاملة لجميع الأبواب إلا باب الدعوة وكان من الطبيعي بعد هذا أن تختفي الدعوة كهدف أساسي عند علماء الأمة وتتلشى عاطفة إبلاغ رسالة الله للبشر حتى أنه لا توجد حركة جديرة بالذكر قامت لهذا الهدف الرباني وهكذا طويت السُنَّة الكبرى لخاتم النبيين من حياة اتباعه فما هو السبب الرئيسي لهذا الإهمال والتقاعس، يجيب وحيد الدين خان:

" إنَّ الذين آمنوا بالقرآن في عصر الإسلام الأول واكتسبوا تربيتهم من رسول الله مباشرة، كانوا يتدفقون حماسة لإبلاغ رسالة الله إلى كل البشر عباد الله، ودارس التأريخ الإسلامي في العصور التالية يرى، بدهشة أن هذه العاطفة قد خبت وتلاشت بمرور الأيام وحين تعرض المسلمون للانحياز السياسي في القرون الأخيرة قامت لدينا حركات عظيمة الشأن لاستعادة السيادة والمجد الغابر، ولكن لم تظهر حركة جديرة بالذكر لأجل الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة، إن القرآن الذي كان يقرؤه الصحابة والتابعون، هو القرآن ذاته الذي قرأته أجيالنا التالية، إذًا فما السبب في أن القرآن الذي ألهمهم الأوائل للدعوة إلى الله لم يحث الأواخر على القيام بمسؤوليات الدعوة؟

ليس من سبب لهذه النتيجة سوى أن القرآن كان مصدر علوم الدين في صدر الإسلام بصورة مباشرة بينما اختفى وجوده في أكوام العلوم، التي اخترعتها عقول البشر في العصور التالية".

(وحيد الدين خان الإسلام والعصر الحديث : بيروت، دار النفائس 1978)

إن دعوة الله في القرآن هي في جوهرها قمة الرحمة والشفقة والنصح للنوع البشري، وهي متواصلة ومستمرة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(فاطر : 5 - 6)

إنَّ أساس خلاص الإنسان يتم عن طريق التوحيد الخالص وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما اتفق على ذلك جميع الرسل، قال الله تعالى محدداً رسالة الدعوة ومضمونها الأساسي :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(الأنبياء : 25)

والعبادة معنى جامع يتضمن الخضوع والذل والمحبة والخشية والرجاء والإنابة والاستعانة فالتوحيد الخالص هو أن تكون العبادة خالصة لله وحده :

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)

(المائدة : 72)

والتوحيد ليس قضية فلسفية أو لفظية بل هو قضية اختبارية بالدرجة الأولى:

(يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(الملك : 2)

ونجاح الإنسان في هذا الاختبار هو أن يجعل الحياة الدنيا مجالاً لإثبات عظمة الله في نفسه، ولا يفوز الإنسان إلا بالإيمان والعمل الصالح فمن جعل حياته القصيرة في الخضوع لله وحده واستقام على الإيمان والعمل الصالح فسوف ينال البشرى بالجنة قبل أن يموت :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

(فصلت : 30)

(2) الرسالة الربانية

" هلاك أمتي في الكتاب يتأولونه على غير تأويله " (جامع بيان العلم)

تمهيد

إنَّ أخطر انحراف وقع في الفكر الإسلامي المعاصر هو تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً، وتأويل رسالة القرآن وتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتاريخ الإسلام في ضوء هذا التفسير، الذي نجم عنه حركات دينية سياسية متطرفة، تعمل ضد الأنظمة السياسية القائمة إسلامية كانت أو غير إسلامية بدعوة إقامة الحكومة الإلهية، ووصل الأمر إلى خطورة قصوى، إذ أن الشباب المسلم في الوطن العربي أو خارجه بدأ يتأثر بهذه التفسيرات السياسية المتطرفة فيؤدي دور المواجهة السياسية، ليتحطم على صخرتها بدون فائدة متوهمًا أنه قد أدى دور الجهاد في سبيل الإسلام، وهذه الظاهرة السائدة في كل مكان تقريباً تقدم أسوأ نتيجة للتفسير السياسي لرسالة القرآن، والحقيقة أنه لا مصداقية شرعية ولا عقلية لمثل هذه التفسيرات فهي قد نجمت عن تأويل خطأ لرسالة القرآن، وتطبيق غير سليم لها، وسوء فهم للتاريخ الإنساني والإسلامي والانخداع بسراب الأمان.

والسؤال الهام: كيف نشأ هذا التفسير السياسي الخطأ لرسالة الإسلام؟! إن في الجواب على هذا السؤال البداية لتصحيح مسار الوعي والعمل برسالة القرآن.

ظهور التفسير السياسي

إنَّ بداية ظهور التفسير السياسي كانت مع أبي الأعلى المودودي (1903 - 1979) عندما قدم تصوراً في إحدى المحاضرات التي ألقاها في مدينة "لاهور" في سنة (1939) حول "نظرية الإسلام السياسية" فطبعت منها عشرات الآلاف من النسخ باللغة الأردية وترجمت إلى اللغة الإنجليزية وكثير من اللغات الهندية وظهرت الترجمة العربية لأول مرة سنة (1946) في لاهور، ومن هناك وزعت في البلاد العربية وظهرت الطبعة الثانية لها في القاهرة سنة (1950).

وفي هذه المحاضرة أشار المودودي إلى معالم النظرية السياسية في الإسلام (كما فهمها)، والتي ارتكزت على تفسيره لمعاني (الإله) (الرب) – بالمعنى السياسي، وأن مهمة الرسل الحقيقية هي دعوة الناس إلى النظام الإلهي وهذا معنى التوحيد – عند المودودي – الذي وقف عليه الرسل حياتهم، وهو جوهر النزاع بين الرسل والملوك والحكام في كل العصور، وفي ضوء هذا المفهوم فسر النزاع بين النمرود ونبي الله إبراهيم عليه السلام، ولقد أشار المودودي بأن – النمرود لم يكن منكرًا لله أو لربوبيته ولكن كان منكرًا لتطبيق شريعته التي سوف تفرض عليه التنازل عن سلطانه الأرضي.

فمن يرفض الحكم بما أنزل الله إنما يرفض ألوهية الله، فجعل أساس دعوتهم للتوحيد في هذه الدنيا أن يقيموا الدولة الإلهية، وهو الأمر الذي ليس له دليل في القرآن أو في السنة.

إنَّ المودودي أخضع القرآن وتعاليم الرسول وسيرته لفكرة الحاكمية لدرجة أنه قدم تفسيراً جديداً للإسلام أساسه الدعوة إلى الانقلاب السياسي وهي مهمة الرسل : "لم يكن بينهم خلاف في وجود الله وفي أنه خلق وبيده ملكوت كل شيء فمن الظاهر أن الرسل ما جاءوهم ليدعوهم إلى تلك العقيدة التي كانوا يعتقدونها ويعترفون بها".

(نظرية الإسلام وهدية ص : 16)

وعندما ترجمت أعمال المودودي إلى اللغة العربية خصوصاً (نظرية الإسلام السياسية) و(الجهاد في سبيل الله) وكتابه الهام (المصطلحات الأربعة)، قام الكاتب والناقد الأدبي (سيد قطب) بتبني هذا التفسير السياسي والدعوة إليه في تفسيره المشهور (في ظلال القرآن) في الطبعة الثانية منه.

يقول فهمي هويدي : "ونحن لا نكاد نعثر على إشارات لمعنى الحاكمية أو لفظها في الكتابات الإسلامية المبكرة للأستاذ سيد قطب وطبقاً لما هو متاح من مصادر بين أيدينا، فإنَّ أول ظهور لفكرة الحاكمية في كتبه كان تفسيره للقرآن المعروف "بالظلال" الذي صدر بعد محنة اعتقاله الأولى سنة (1954). إذ نجده يقول في تعقيبه على الآية :

(وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

(المائدة : 44)

إن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله، فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها **الحاكمية التشريعية**".

(ندوة التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ، طرابلس، رسالة الجهاد، ص : 133)
"ونظراً لأن المودودي هو المؤسس لهذا التفسير في البداية وأن سيد قطب قد قام بتبنيه ونشره خصوصاً في تفسيره. وكتابه (معالم في الطريق) والذي ذهب فيه مسافة أبعد في تنظيره لمسألة الحاكمية، حتى صارت هذه الفكرة تحتل الركن الأساسي في الكتاب". (المصدر السابق ص 134)

فسوف يكون النقد لهذا التفسير الجديد بالاختصار على أهم المؤلفات التي عرضت لهذه النظرية عند المودودي وسيد قطب، ومن خلال النقد التحليلي سوف تظهر بإذن الله حقيقة الرسالة الربانية.

الرسالة الربانية

ليس في منهج الرسل والأنبياء أن تكون السلطة السياسية هدفاً مباشراً لدعوتهم وليس من منهجهم السعي للإطاحة بالأنظمة السياسية القائمة بدعوى إقامة "حاكمية الله". بل إن الله قد حدد غاية إرسال الأنبياء والرسل وهي إقامة التوحيد الذي يعني الخضوع له وحده وإفراده بالألوهية "العبادة".

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(الأنبياء : 25)

ونظراً لأن الله خلق الحياة الدنيا للاختبار، فهو قد أرسل الرسل ليقوموا بالحجة على خلقه :
(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)
(النساء : 165)

ولهذا فقد جعل أساس الدعوة وقاعدتها الجوهرية هو الإنذار من اليوم الآخر :
(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

(غافر : 15)

وينطبق الأمر على خاتم الرسل (ﷺ) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)
(الشورى : 7)

ولكن بعض المفكرين المسلمين زعموا أن الله أرسل الرسل لتقرير : "حاكمية الله القانونية" على البشر، وأن هذا هو جوهر النزاع الذي وقع بين رسله والفراعنة والتماردة أو أقوامهم الذين أرسلوا إليهم، وأن الهدف هو رد هذه الحاكمية المغتصبة إلى الله، وزعم هؤلاء المفكرون أن أصل الخلاف : من يحكم ؟ يقول أبو الأعلى المودودي "لم يكن الخلاف في وجود الله وفي أنه خلق الخلق وبيده ملكوت كل شيء، فمن الظاهر أن الرسل ما جاءوهم ليدعوهم إلى تلك العقيدة التي كانوا يعتقدونها ويعترفون بها، فلم كانت بعثتهم وعلى أي شيء قام النزاع بينهم وبين من أرسلوا إليهم من الأمم؟".
(نظرية الإسلام وهديه، ص : 15)

وجواب المودودي على أن قضية النزاع ليست عبادة الأوثان والأصنام والكواكب والنجوم، لأن هذه كلها لا تتنطق ولا تستطيع أن تأمر الإنسان بأن يعبدها من دون الله يقول المودودي : "تحسب أنه يوجد شيء فيما خلق الله من السموات والأرض يقوم في وجه الإنسان، ويقول له : إني إلهك وربك فاعبدني ؟ أيدعى ذلك الحجر أو الشجر أو الحيوان أو الشمس أو غيرها من الأجرام السماوية. لا، لا، والله لا يقوم في وجه الإنسان شيء من هذا يدعى الألوهية والربوبية، بل إنما الإنسان وحده الذي يبعثه حب السلطة وهوى الأثرة على أن يجعل نفسه إلهاً لغيره من أبناء نوعه يستعبدهم وينفذ فيهم أمره".
(المصدر السابق : 17)

ومعلوم أن القرآن الكريم والسنة والتاريخ يثبت أن الإنسان عبد كل هذه المعبودات من دون الله، ولكن المودودي يجعل أصل النزاع بين الرسل والأمم التي أرسلوا إليها هو : "حاكمية البشر" عن طريق حصولهم على السلطة : "إنما الإنسان وحده هو الذي يبعثه حب السلطة وهوى الأثرة على أن يجعل نفسه إلهاً لغيره من أبناء نوعه يستعبدهم وينفذ فيهم أمره" ويقوم المودودي بتبرير نظريته هذه من خلال عرضه كمثال على ذلك حول النزاع الذي حدث بين إبراهيم وملك العراق النمرود والذي ورد في القرآن الكريم :
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة : 258)

ويعلق المودودي

"فالنزاع لم يكن في أنه من رب السموات والأرض ومن بيده ملكوت كل شيء بل كان جداله من هو مالك رقاب الناس عامة والذين منهم في بابل خاصة؟ فلم يكن من دعواه أنه الله بل كان يقول إني رب هذه البلاد وأهلها "

(نظرية الإسلام وهدية ص : 19)

وهذا التأويل ليس له أصل عند المفسرين كافة وأهل اللغة. وعلى سبيل المثال، يقول المفسر ابن كثير في تفسير الآية : " (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ، (القصص : 38) "

(أنظر تفسير ابن كثير : 556/1)

وحين يبحث صاحب "مفهوم الحاكمية" على دليل أو قرينة تثبت ما يقول لا يجد إلا أن يستدل بمقالة فرعون لملاه ليصرفهم عن أتباع موسى :
(قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35))

(الشعراء : 34 - 35)

يقول سيد قطب : "ولقد أدرك فرعون وملأه خطر الدعوة إلى رب العالمين وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون، وسلطانهم المستمد عنه فعبروا عن هذا الخطر : (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110)) (الأعراف : 109 - 110) "

(في ظلال القرآن 9 / 9)

ومعلوم أنه لا يمكن أن يحتج بقول فرعون أو ملأه على معنى توحيد الربوبية، لأن فرعون حين أعجزته الحيلة في مواجهة التحدي الذي كشفه موسى عن قدرة الله لم يجد بداً من أن يصرف هذا الأمر إلى قضية وقتية وهي أن موسى يريد السلطة ويريد إخراجهم من مصر، وهو بلا شك محض افتراء وخديعة اعتاد الذين ينكرون الحق أن

يستخدموها عندما يعجزون عن إقامة الدليل على بطلان الحق، ومن العجيب أن يتجاوز المفسر معنى الربوبية الحقيقي إلى المعنى الذي أراده فرعون وملأه.

فالمودودي يخالف المفسرين كافة في تأويله لمفهوم الربوبية فهو يقول عن النمرود: "لم يكن منكراً لله بل يعتقد أن الله سيد الكون وبيده مقاليد السماوات والأرض"

(نظرية الإسلام وهديه ص : 19)

وفي الألوهية يقول المودودي : "خلاصة القول أن أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة".

(المصطلحات الأربعة : ص 24 - ط 4)

أما سيد قطب فيقول - عن مفهوم الربوبية - : "إن رد الربوبية كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلها لله، فالحاكمية هي مظهر ربوبية الله للناس. ويقول بناءً على هذا التفسير لمعنى الربوبية : "لقد أدرك فرعون وملأه خطر الدعوة إلى رب العالمين، وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون ... أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها أنها محاولة لقلب نظام الحكم".

(في ظلال القرآن 9 / 9)

كيف يمكن أن يطالبوا النمرود وفرعون بالحكم بما أنزل الله وهما لا يؤمنان بالله بل كانا يزعمان بألوهيتهما فضلاً عن أنه لا يوجد دليل على أن الشريعة قد نزلت على إبراهيم أصلاً حتى يطالب بها النمرود، ومعلوم أن موسى لم تنزل عليه التوراة إلا بعد خروجه مع قومه من مصر، إن التفسير الصحيح هو أن خطاب إبراهيم وموسى عليهما السلام ودعوتهم ليس المقصود منها نزع سلطان النمرود أو فرعون أو الإطاحة بنظام السلطة القائمة في العراق ومصر، بل كان الخطاب دعوة للإيمان والتصديق بالله وإفراد العبادة له وحده، وهذا هو التفسير المجمع عليه من المفسرين كافة والشرح، ولقد تقدم المودودي أكثر في تفسيره لمعنى لا إله إلا الله بمعنى الحاكمية المشار إليها. فجعل أصل النزاع بين المشركين وخاتم الرسل - أيضاً - يدور في هذه الحلقة :

فيؤكد المودودي وكذلك صاحب الظلال أن معنى "لا إله إلا الله" لا يخرج عن مدلول "الحاكمية" أو أولى خصائص الألوهية. "لقد كان العرب يعرفون من لغتهم معنى

"إله" ومعنى "لا إله إلا الله" كانوا يعرفون أن الألوهية تعني "الحاكمية العليا" وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله - سبحانه - بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان و مشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده كله إلى الله ... كانوا يعلمون أن "لا إله إلا الله ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية".

(معالم في الطريق : ص 22)

وخلاصة الأمر عند أصحاب نظرية الحاكمية أن أصل دعوة الرسل إثبات حاكمية الله على البشر وهو ما كان المشركون ينكرونه، فهم يقبلون ربوبية الله، وينكرون حاكميته مثل فرعون والنمرود لأنهما كانا ينكران تنفيذ شريعة الله، ولقد وصل الأمر بأن جعل المفسر (المودودي) الحكام كافة الذين لا ينفذون شريعة الله في مرتبة فرعون والنمرود "فهذه الألوهية التي ادعاها فرعون والنمرود ليست بقاصرة عليهما بل نجد كل الملوك في كل أرض وفي كل زمان ينتحلون تلك الألوهية ويدعونها" وينطبق الشرك من جهة أخرى على الناس، وكان الناس يقومون لهم بجميع ما يكون آداب العبودية ... وما زال الناس في العصور الغابرة سائرين على هذه الخطة وكذلك حالهم اليوم في معظم أقطار العالم"

(انظر نظرية الإسلام وهديه 19 - 21)

الفرق

ومن أجل دفع الالتباس على القارئ، في إدراك معنى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية نشير إلى الفرق بينهما معتمدين على القرآن وعلى شروح المفسرين، وفي مقدمتهم : الإمام ابن تيمية من خلال مؤلفاته كـ "رسالة العبودية".

أولاً : معنى توحيد الربوبية : هو إثبات وجود الله، وإثبات صفات الخلق له، والملك، والإحياء، وهو الذي يحيي ويميت، وهو رب السموات والأرض. وكان هذا النوع من التوحيد لا ينكره جل المشركين في العصور القديمة، والقرآن والرسالات السماوية السابقة تجعل هذا التوحيد أساساً لدعوتهم إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان وما يعبدون من دون الله إلى عبادة الله وحده ومثال ذلك من القرآن :

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ((63))

(العنكبوت : 61 - 63)

وقال تعالى : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87))

(المؤمنون : 84 - 87)

ثانياً : توحيد الألوهية، وهو الذي يلزم أو يأتي تبعاً لتوحيد الربوبية فهو الأخص وإذا كان توحيد الربوبية يتعلق بإثبات الخالق وأفعاله وصفاته، فتوحيد الألوهية يتعلق بأفعال العبد تجاه خالقه وربّه الذي آمن به، و الألوهية – في اللغة – بمعنى العبادة، وهي المطلوب الأصلي من العبد تجاه ربه، وهي أصل الدعوة الإسلامية عند الرسل كافة :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(الأنبياء : 25)

ومعنى "لا إله إلا الله" لا معبود بحق سوى الله، وعندما يقرّ العبد بصدق بهذه الحقيقة فإنه يكون قد نفى عن نفسه الشرك وأثبت أن العبادة و الألوهية من حق الله وحده، أي لا ينبغي أن تصرف لغير الله، والعبادة بمعنى التذلل والخضوع للمعبود، وتشتمل على الحب والخشية، والعبادة واقع شعوري، ولا يمكن أن تكون عبادة المسلم ناقصة أو غير مقبولة عند الله إذا لم يكن الحكم بالشرعية قائماً، يقول الإمام ابن تيمية : "وعبودية القلب وأسرّه هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ولو كان في الظاهر ملك الناس".

(رسالة العبودية : ص 20)

وكما نلاحظ أنَّ دعوة الرسل تقوم على أساس إثبات توحيد الربوبية والألوهية معاً لله، وكان الأسلوب الذي انتهجوه هو إثبات الربوبية لإثبات الألوهية كما هو في حوار موسى عليه السلام مع فرعون :

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)) (الشعراء : 23 – 29)

يعلق ابن كثير على هذا الحوار: "يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله :

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) وذلك أنه كان يقول لقومه (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي)

(القصص : 23 - 38)

(فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ)

(الزخرف : 54)

وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنَّ لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى : إني رسول رب العالمين . قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنَّه رب العالمين غيري ! هكذا فسرهُ علماء السلف وأئمة الخلف . حتى قال السدي :

هذه الآية كقوله تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى

((50))

(طه : 49 – 50)

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنَّه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل الماهية بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر.

(تفسير ابن كثير : 5 / 178)

والقرينة التي يسوقونها أيضاً للتدليل على نظرية الحاكمية قوله تعالى :
(إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا بِاللَّهِ)

(الأنعام : 57)

وقوله : (قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ بِاللَّهِ)

(آل عمران : 154)

ومعلوم أن الأمر في مثل هذه السياقات لا يقصد به (الحكم السياسي) أو القانوني، بل هذه صفة من صفات الربوبية للخالق، وتعني مطلق القدرة على التصرف والقضاء في مخلوقاته، وهو ما يسميه الإمام ابن تيمية وغيره " الأمر القدري أو الحكم الكوني" وهو غير الحكم الشرعي، ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية: (إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ بِاللَّهِ) في سورة يوسف عليه السلام: أخبرهم - يوسف لصاحبيه في السجن - إن الحكم والتصرف والمشئنة كله لله "تفسير ابن كثير" ولهذا فلا يصح القول أن هؤلاء الحكام اغتصبوا "حكم الله" لأن حكم الله المطلق بيده، وهي صفة من صفات الربوبية (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(الكهف : 26)

(إِنْ أَمَرَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مَا يُرِيدُ)

(المائدة : 1)

ولو سلمنا بتأويل هؤلاء المفكرين لصار الأمر لغير الله، ولصار الحكم بيد البشر، ولو كان ذلك حقيقياً كما يزعم هؤلاء المفكرون إذن لكانوا أرباباً فعلاً، وهذا كما هو واضح عند كل المفسرين المتدبرين في القرآن، قياس فاسد، وهو قياس لا يقول به إلا من جعل معنى (الحكم) في الآيات (الحكم السياسي) أو (الملك الأرضي) الذي هو بيد الله وليس بيد غيره حسب منطوق الآية :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

(آل عمران : 26)

ويقدم المودودي قرينة أخرى في غير سياقها، وهي الآية التالية - في وصف أهل الكتاب "النصاري" - :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31))

(التوبة : 31)

وعبادة أهل الكتاب لأحبارهم ورهبانهم " كما فسرهما الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعدي بن حاتم الطائي " بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلوا الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم".

(ابن كثير 3 / 385)

إنَّ أهم نقطة في خطأ الاستدلال بهذه الآية لتدعيم نظرية الحاكمية، أن العبادة المشار إليها صرفت للأحبار والرهبان أيّ رجال الدين عند النصارى وليس لذوي السلطة فيهم لسبب واضح وجلي وهو أنّ الطاعة الدينية تقدم لمن يفترض فيهم القدسية والعصمة، وهي انحراف خطير وقع في أهل الكتاب لتقديسهم الأعمى لرجال دينهم، ولقد أورد الإمام ابن تيمية الأثر التالي عن أبي العالية في تفسير الآية بما يؤيد هذا الواقع :

"كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه، فقالوا لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به اتئمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستصحبوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم". (الإيمان : 64)

فهذا الحكم ينطبق على رجال الدين بالدرجة الأولى ولهذا يقول أحد العلماء المعاصرين : "والحق أن قداسة أولى الأمر أو عصمتهم أو الظن أن أوامره كأوامر الله تعالى أو أنّ لهم أن يحلوا ما حرّمه الله أو يحرموا ما أحله الله ذلك كله معدوم الوجود بين غالب المسلمين". (دعاة لا قضاة : ص 105)

وكما أدى الاستدلال بالآية السابقة إلى إلصاق "الشرك" بالمسلمين المعاصرين، كذلك استدّلوا بالآية :

(وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

(المائدة : 44)

فزعّموا على ضوء هذه الآية أن الحاكم بغير ما أنزل الله قد كفر فهو "طاغوت" وقالوا : إن الكفر بالطاغوت لازم (ومن لم يحكم بكفر هذا الأخير فهو بدوره لم يحكم بما

أنزل الله (فهو كافر)، ولقد ذكر الإمام ابن تيمية في صدد تأويل هذه الآية قول السلف أن الإنسان يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر "فكذلك في قولهم أنه يكون فيه إيمان وكفر ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى : (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، قالوا كفر لا ينقل عن الملة وقد تبعهم على ذلك الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة".
(أنظر : الإيمان 184 – دار الكتاب العربي)

ولقد أورد الطبري رواية عن طاوس بن كيسان عن أبيه، قال : سئل ابن عباس عن قوله : (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ) قال : به كفر، قال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال الثوري عن ابن جريح عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر وظلم دون ظلم.

(أنظر تفسير الطبري – في موضع الآية وابن كثير في تفسيره 579 / 2)

نتيجة التفسير الخطأ

وفي ضوء التفسير السابق تقدم صاحب الظلال ليطلق صفة الجاهلية على كل المجتمعات الإنسانية المعاصرة بما في ذلك المجتمعات المسلمة التي تدين بالإسلام ولكن هذا الإسلام عند صاحب الظلال لا يعترف به ولا مشروعية له: "إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره". (معالم في الطريق : ص 93)

ويقدم صاحب الظلال تعريفاً للمجتمع الجاهلي في ضوء "نظرية الحاكمية" :

"وهو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض"
(المصدر السابق : ص 88 – 89)

ويضع المؤلف كافة المجتمعات القائمة اليوم في مستوى واحد من الجاهلية.
"المجتمعات الشيعية والوثنية ... واليهودية والنصرانية وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي ترغم لنفسها أنها مسلمة".
(المصدر السابق : ص 91)

والمجتمع الجاهلي في نظر المؤلف ليس تعبيراً رمزياً أو صفة مجازية بل تعبير محدد يعني: "الشرك" وهو الشرك نفسه الذي كان عليه أهل الجاهلية الأولى، يقول المؤلف: "وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا "مسلمين" فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقاداً وتعبيداً. فإن هذا وحده لا يجعل الناس "مسلمين" ما لم يتحقق أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكمية، ويرفضون حاكمية العبيد ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية، إن كثيراً من الطيبين تخدعهم هذه الخدعة .. وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يخدعون عنه، فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية .. والوحيدة وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم "المشركين" لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته كما تبين ويقدمون له شفعاء من أصنامهم، وكان شركهم الأساسي يتمثل – لا في الاعتقاد – ولكن في الحاكمية."

(في ظلال القرآن : 3 / 265 ط.5)

وهكذا يتبين مدى الانحراف الفكري الذي وقع فيه المؤلف، والواقع أن إطلاق صفة الجاهلية المطلقة على المجتمعات المسلمة لم يحدث لها نظير في التاريخ الإسلامي بأسره إلا عند طائفة واحدة هي طائفة الخوارج والغلاة منهم ، وإنه من المسلم به أن تكون بعض شعب الجاهلية أو سننها قد وجدت أو توجد في المجتمعات المسلمة في وقت ما، ولكن أن توضع كافة المجتمعات المسلمة على قدم المساواة مع مجتمعات الجاهلية المشتركة قديماً أو حديثاً، فهو تجاوز لحدود العدل والقصد، وأحرى بالمسلم كائناً من كان أن يتوقى هذا الغلو.

يقول الإمام ابن تيمية: "فالناس قبل مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانوا في حال جاهلية منسوباً إلى الجهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهال، وإنما يفعل جهل وكذلك ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعدما بعث الله الرسول (صلى الله عليه وسلم) فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام فإما في زمان مطلق : فلا جاهلية بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ."

(اقتضاء الصراط المستقيم : ص 78)

ولخطورة الحكم بالشرك أو الكفر على المسلمين فلقد حذر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ارتكاب هذا الخطأ الذي يؤدي إلى اقرار جريمة قتل المسلمين بدون حدود، فلقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إِنََّّ مما أُنْخَوْفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُؤِيتَ بِهِجْتَهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رَدَاؤُهُ الْإِسْلَامَ فَاعْتَرَاهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ.

"قال حذيفة: قلت يا نبي الله أيُّهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي، قال : "بل الرامي". (قال الحافظ بن كثير : إسناده جيد)،

(أنظر تفسير ابن كثير 3 / 252)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر باء بها أحدهما فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه". (متفق عليه)

وقال (صلى الله عليه وسلم): من دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا رجعت عليه". (متفق عليه)

وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحذر من استباحة دماء المسلمين :

"من خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدا فليس مني ولست منه"
(روه مسلم / باب الإمارة والنسائي في تحريم الدم وابن ماجة في الفتن / باب المعصية)

الرسالة السياسية

ومع أهمية ووجوب العمل من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية عند وجود حرية الاختيار الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، فإنه ينبغي ملاحظة الفرق بين الدين الأساسي وهو التوحيد الدين المتفق عليه بين كافة الرسل والأنبياء، والذي أمر الله بإقامته وعدم

التفرق فيه، (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)، في سورة الشورى، الآية (13)، وسورة البينة، الآية (5)، (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)، ومن بين الأمور الفرعية للدين (الرسالة السياسية) وهي التي اصطلح عليها العلماء بإسم الإمامة، وباتفاق وإجماع الأمة إنّ نظرية الإمامة ليست من أصول الدين بل من الأمور الاجتهادية، وهي ليست من العقائد بل من الفروع، ولقد رد الإمام ابن تيمية على من زعم أن قضية الإمامة أهم المطالب في الدين وأحكم المسائل، فقال : "بأنه كذب بإجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم بل هو كفر فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة"

(منهاج السنة : 48 / 1)

وقال أيضاً : "إنها ليست من أركان الإسلام الخمسة ولا من أركان الإيمان الستة ولا هي من أركان الإحسان"

(منهاج السنة : 70 / 1 - 72)

ولهذا السبب فإن الخلاف في الإمامة لا يقتضي الكفر أو الإيمان: "واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير"

(الغزالي / فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ص 15)

ويقول الغزالي أيضاً : "إن نظرية الإمامة ليست من المهمات (الأصول) وليست من فن المعقولات، بل من الفقهيات" (الأمور الاجتهادية).

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص 134)

ويقول الإمام الجويني إمام الحرمين : "إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد".

لقد بدأت دعوة الرسول في مكة وقامت أساساً على التوحيد ولم يؤثر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن طرح قضية السلطة السياسية على قريش أو على من أسلم معه، وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية : "من المتواتر أن الكفار على عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) كانوا إذا أسلموا أجرى عليهم أحكام الإسلام ولم يذكر لهم الإمامة بحال ولا نقل عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) أحد من أهل العلم ولا نقلاً خاصاً ولا عاماً بل

نحن نعلم بالاضطرار أن النبي (صلي الله عليه وسلم) لم يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة لا مطلقاً ولا معيناً فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين"

(منهاج السنة : 1 / 49)

والحقيقة أن خصومة خاتم الرسل لقريش لم تكن حول من يحكم، ولم تكن سياسية بل هي واضحة كما أعلنها القرآن : "الإنذار" من اليوم الآخر والدعوة إلى التوحيد والإيمان برسالاته ومساعدته لتبليغها للناس كافة وحين عرضت قريش على الرسول أن يكف عن الدعوة للتوحيد مقابل الموافقة على أي مطلب آخر يريده، قال الرسول (صلي الله عليه وسلم) : "ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

(ابن كثير / البداية والنهاية : 3 / 50)

وكان موقف الرسول من قضية السلطة السياسية أنها في يد الله يؤتيها من يشاء وذلك هو رده على قبيلة كندة عندما قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟" فقال الرسول : إنّ الملك لله يجعله حيث يشاء" (البداية والنهاية).

فلم يستغل هذا العرض حتى بدعوى إمكانية نشر الدين أو تطبيق الشريعة بل مضى على منهجه الكريم في تبليغ الرسالة كما أمره ربه :
(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(النحل : 125)

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ((22))

(الغاشية : 21 - 22)

عقبة الشرك

في الماضي كانت الدعوة إلى التوحيد تواجه عقبة عظيمة هي فتنة الشرك، ولم يكن في ذلك الوقت الشرك عبارة عن عقيدة شخصية لفرد ما بل كان العقيدة المسيطرة على

جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية للإنسان كافة، وكان اختيار التوحيد عقيدة معناه مواجهة فتنة عظيمة تبدأ بالاضطهاد والقهر والعذاب وتنتهي بالتشرد والقتل وعلى سبيل المثال عندما أعلن السحرة في زمن فرعون الإيمان :

(آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) (طه : 70)

كان جواب فرعون :

(فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

(طه : 71)

وهكذا الحال كان من أصحاب الأخدود مع الذين آمنوا بالله وحده :

(وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(البروج : 8)

كان هذا هو جزاء أهل التوحيد في عصور الظلمات عندما كان الشرك مرتبطاً أشد الارتباط بكل جوانب الحياة الدينية والاجتماعية.

وعندما بعث الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) واجه هو وأصحابه الموقف نفسه من قومه الذين كانوا يدينون بالشرك، ولقد تعرض الرسول والصحابة الذين آمنوا به في مكة لفتنة الشرك حتى أمر الرسول المؤمنين بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وكان غاية الهجرة هي الحصول على الأمن لعبادة الله وتوحيده التي كانت غير ممكنة في مكة في ذلك الوقت وهو ما يسمى في العصر الحديث بـ (حرية العبادة)، ولقد دلل القرآن على هذا :

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(الحج : 40)

فلم تكن هجرة الرسول والصحابة لأسباب سياسية، ولم يكن الرسول والصحابة يمثلون دور المعارض السياسي لقريش بل كان الباعث دينياً بحتاً وهو حرية العبادة

وتبليغ الرسالة الإلهية للناس، وذلك ما رفضت قريش السماح به لرسول الله عليه السلام حتى وصل الأمر إلى حد التآمر على قتله ولكن الله فتح باب النصر لرسوله في المدينة وقصة ذلك أن الرسول عندما شعر باستحالة تبليغ الرسالة في مكة طلب النصر والحماية من قبائل العرب كافة لهذا الأمر ومن أجل ذلك كانت رحلته للطائف وعرضه لنفسه على أحياء العرب في مواسم الحج كما ورد في كثير من الروايات في السيرة وعلى سبيل المثال، عندما عرض نفسه على قبيلة بني عامر بن صعصعة فقال لهم : "إني رسول الله وآتيكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولا أكره أحداً منكم على شيء."

(أنظر البداية والنهاية : 3 / 141)

ولقد وافق الوفد من القبيلة في البداية معلنين "ولكننا لا نطردك ولا نؤمن بك وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك" ولكن منعهم من ذلك بحيرة بن فراس من قبيلتهم: "أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوه فتؤونه وتنصرونه فيبئس الرأي رأيتم"

(أنظر البداية والنهاية : 3 / 141)

ولهذا السبب وحده أمر الله بالقتال لإزالة فتنة الشرك الجارح :
(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

(الأنفال : 39)

ولقد فسر الصحابي عبد الله بن عمر هذه الآية في ضوء سياقها التاريخي، فميز بين القتال لإزالة فتنة الشرك، والقتال لأغراض سياسية، وهو الأمر الذي جهله كثير من بعده، لقد ورد في البخاري أن سعيداً بن جببر قال: خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال : فبادرنا إليه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ) فقال (عبد الله) : "هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك، إنما كان محمد (ﷺ) يقاتل المشركين وكان الدخول في دينهم فتنة وليس كقتالكم على الملك". وحين دعي للمشاركة في الفتنة التي وقعت في زمن عبد الله بن الزبير وتليت عليه الآية : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)... قال : "قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله" وفي رواية أخرى قال عبد

الله بن عمر : "فعلنا ذلك على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة". هذه الروايات كلها قد وردت في صحيح البخاري.

(في تفسير سورة البقرة، ووردت كذلك في تفسير ابن كثير 1 / 403).

وكما يتضح من هذه الآثار فإن الجهاد القتالي كان موجهاً في الأساس لإزالة فتنة الشرك، وأن الوضع قد تغير بعد جهاد الرسول والصحابه بعد القضاء على الفتنة، وفقد الشرك سيطرته التامة، وكما قال عبد الله بن عمر : "قاتلت وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة".

(ابن كثير 3 / 317)

وكان ذلك أعظم تغيير حدث في التاريخ الإنساني لأن الله قد أراد بإرسال الرسول الخاتم (ﷺ) إخراج الناس من الظلمات إلى النور : (الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(إبراهيم : 1)

ولقد تحقق هذا الوعد الإلهي عندما أصبح التوحيد ظاهراً في الأرض وأصبح اختياره كعقيدة لا تنجم عنه فتنة ما، ولم تعد للشرك السيطرة التي كانت له في الماضي، وأصبح عبارة عن اختيار شخصي.

وفي مثل هذا الجو ساد الدين الإسلامي وانتشر في بقاع الأرض ودخل الناس فيه أفواجا في كل زمن حتى هذا الوقت. وبوسع الإنسان المسلم في ظل مبدأ حرية العبادة أن يعيش في دول غير مسلمة وأن يزاوِل عبادته بمساعدة السلطة القائمة التي تكفل حرية الدين والعبادة للجميع.

إن رسالة الدعوة والجهاد يجب أن تقوم الآن بكل قوة وليدفع فيها الغالي والرخيص دون حاجة إلى سفك الدماء، بل إن المطلوب هو العكس تماماً وهو تجنب أي عمل يؤدي إلى إعادة الفتنة إلى الأرض، ولقد كان عبد الله بن عمر محقاً عندما قال لأولئك الذين جعلوا "السلطة" هدفاً لعملهم ونزاعهم : "قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله".

(تفسير ابن كثير : 3 / 317)

الفريضة الغائبة

وكما تبين لنا من السابق أن العمل على نزع السلطة أو منازعة أولي الأمر ليس فريضة من فرائض الدين، فإنه جدير بنا أن ننبه على أن الفريضة الحقيقية المطلوبة من الأمة الإسلامية هي تبليغ رسالة الإسلام للناس كافة وهذا هو العمل الهام الذي تولى عنه المسلمون في العصور المتأخرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)

(البقرة : 143)

ومعنى (الأمة الوسط) الأمة التي تقوم وسطاً بين الله وخلقه لتبليغ رسالته إليهم، ولتكون شاهدة عليهم يوم القيامة بذلك، كما يكون تماماً الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) شهيداً على الأمة الإسلامية.

وقد اختار الله الأمة الإسلامية لتقوم مقام الرسول إلى يوم القيامة، كما اختار الله الرسل في الماضي لتبليغ رسالاته السماوية، وقد أمر الله الأمة الإسلامية بالجهاد في سبيل هذه المهمة :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أُنِيَكُمْ إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(الحج : 78)

وجهاد الأمة الإسلامية يكمن في بذل أقصى الجهود في تبليغ هذه الرسالة للناس كافة ليتبين لهم طريقة الهداية الربانية كما هي في (القرآن الكريم). وهو نفس الجهاد الذي أمر الله به رسوله : (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(الفرقان : 52)

وكما هو معلوم في اللغة العربية أن معنى الجهاد هو بذل الوسع والطاقة أو أقصى الجهد، وهو المطلوب الأساسي من أجل نشر رسالة الدين عن طريق الدعوة والمجاهدة بالقرآن حتى لا يكون لأحد حجة يوم القيامة بأنه يجهل الهداية الإلهية التي هي وسيلة الإنقاذ من عذاب الله والفوز بنعيم الجنة الأبدي. وهذا هو هدف شهادة الحق "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" الآية.

وأسلوب الإنذار والتبشير هو الأسلوب الحقيقي الذي شرعه الله من أجل توضيح الرسالة القرآنية أيضاً وهو الذي اتبعه الرسول والصحابه التزاماً بتعاليم القرآن :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46))

(الأحزاب : 45 - 46)

ولقد أمضى الرسول (صلى الله عليه وسلم) حياته في سبيل تبليغ الرسالة الإسلامية بكل ما أوتي من جهد وقوة، وأمر أصحابه بأن يبلغوا عنه هذه الرسالة كما أراد الله: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (يوسف : 108)

العمل على ضوء الخطة الربانية

إن أخطر ما يواجه الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر هو الخصومة التي تنشأ باسم الدين وتحت راية الاحتجاج بمطالب دينية. إن هذه الخصومة تتحول إلى عقبة كبرى أمام قيام الدعوة، والعالم العربي والإسلامي يقدم في العصر الحديث أمثلة شاهدة على ذلك، فلقد نشأت خلال هذا القرن حركات إسلامية وقفت في مستوى الخصم السياسي للحكومات، ولقد حدث بسبب هذا اصطدام كان من نتيجته فساد جو الدعوة والعمل الإسلامي، ولقد وصف أحد المفكرين هذا الواقع بالكلمات التالية :

"لم يحدث في تاريخ الإسلام بأكمله واقع مؤلم كهذا الواقع، وهو أن جميع الحركات الإسلامية رأت أن المواجهة السياسية هي المطلوب الوحيد فجعلت من الإسلام نداً للسلطة".

(وحيد الدين خان إمكانيات جديدة للدعوة : 24)

والسبب الأساسي لهذا الصدام يعود إلى تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً وبالتالي تحولت كل الجهود والطاقات إلى ميدان السياسة الصدامية. لا ريب أن هناك خطأ كبيراً في فهم حقيقة الرسالة الإسلامية، وهي في جوهرها هداية الناس إلى خالقهم ودعوتهم لتوحيده وتنبيههم عن طريق الإنذار والتبشير بقضية اليوم الآخر حتى تقوم عليهم الحجة، وهذا هو معنى العمل في ضوء الخطة الربانية التي بينها القرآن لإنذار الناس من اليوم الآخر، وتبشيرهم بوعده الله الحق الجنة، ودعوتهم للإيمان والتوحيد الخالص، إن الآخرة ليست قضية هينة أو تافهة كما يظن كثير من المسلمين ونعني مفكرهم وزعمائهم بل هي أخطر قضية تواجه الوجود الإنساني، وجهنم هي الكارثة الكونية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال وصف أهوالها وما تحمله من هلاك بيّن، إن هذه الحقيقة هي التي يسميها القرآن "الطامة الكبرى" أو "النبأ العظيم" ومعناه أن أي نبأ لا يمكن أن يرقى إلى مستوى هذا النبأ، والحياة الدنيا عبارة عن ميدان اختبار ومن شروط الاختبار امتلاك الحرية، فالفساد الذي يواجهنا في هذا العالم مع أن الله يمقته ولا يحب أهله إلا أنه جاء نتيجة لامتلاك الإنسان حرية التصرف فهو لازم لسوء استعمال الحرية، ولقد أعلم الله ملائكته بذلك حين خلق الإنسان:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(البقرة : 30)

إن الذي أمهل رأس الشر والفساد في الأرض – وهو الشيطان – يمهل الذين يقتفون سلوك الشيطان، إن الشيطان يدعو حزبه ليكونوا من "أصحاب السعير" والله يدعو إلى "دار السلام" وأهل الإيمان وورثة الرسالة الإلهية ينبغي أن يقوموا على مستوى الخطة الربانية، وليس على أساس ردود الفعل الوقتية وليس من الخطة الإلهية أن تكون الدنيا مجالاً للكمال البشري طالما أن حرية الإنسان واردة، وسوء استعماله للحرية يقوده للخطأ في كل حين، لذلك فالمطلوب من المسلمين أن يصبروا كما صبر الله على ذلك كله، وأن يعملوا وفق هدف الأنبياء وهو الإنذار من يوم اللقاء :

(يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

(غافر : 15)

ويوم القيامة سيكون العذر قد قطع على الكفار، وذلك حين يواجهون الكارثة الرهيبة:

(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ)

(الزمر : 71)

وهكذا فإن الدعوة الإلهية عبارة عن إتمام الحجة على الناس، وفتح أبواب الرحمة الإلهية أمامهم عن طريق الإيمان والعمل الصالح، والداعية الرباني يصوغ فكره وسلوكه في ضوء الحقائق الأبديّة العليا وليس في ضوء الانفعال الوقتي وردود الفعل الفورية، ولا يمكن تسمية ردود الفعل أو وصفها بأنها "جهاد في سبيل الله" إن تلك التسمية غير صحيحة مهما كانت النوايا حسنة.

القرآن الكريم يذكر أن مسألة تمكين الأمة الإسلامية في الأرض يأتي كجزء لوفائها بالهدف المطلوب منها، فهو إنعام يستحقه أهل الإيمان لوفائهم بمسؤولياتهم، واللفظ القرآني الخاص بذلك هو "الوعد".

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(النور : 55)

وفي قصة نبي الله يونس عبرة عظيمة أمر الله بالاستفادة منها. لقد أرسل الله يونس إلى قرية نينوى في العراق الحالية، وبعد أن قضى يونس عليه السلام فترة من الزمن يدعوهم إلى التوحيد أعرضوا وكذبوا فتركهم قبل إقامة الحجة عليهم، ولقد فاجأه العقاب الإلهي ووجد نفسه في بطن الحوت:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49))

(القلم : 48 - 49)

وحين أنجاه الله من هذه المحنة ورجع إلى قومه لدعوتهم رفع الله بأسه عنهم بعد أن استجابوا وآمنوا :

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

(يونس : 98)

أن الله يتصف بالكمال ومن صفاته الحسنى (الرحمة) فهو رحمن رحيم ومن رحمته إنجاد عباده بكل وسيلة للهداية حتى يكونوا من أصحاب الجنة :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(يونس : 25)

ومما يتعارض مع صفة الرحمة ترك الناس بدون هداية الرسل :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

(الإسراء : 15)

وحين لا يقوم أتباع الرسول الخاتم بدور الهداية فكيف يستحقون من الله التمكين والنصر والعصمة من أعدائهم، ولقد جعل الله العصمة في تبليغ الرسالة :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(المائدة : 67)

إن عمل الدعوة وتبليغ الرسالة من أهم الأعمال عند الله لأنها السبيل للعدو وإقامة الحجة في الحديث : "لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين و منذرين "

(رواه البخاري ومسلم)

ولا زال أتباع الرسول العربي هم المسؤولون عن ذلك في كل مكان، ومعلوم أن إتمام الحجة، وإقامة الشهادة لا يتم إلا بالجهاد في تبليغ هذه الرسالة عن طريق الإنذار

والتبشير أسوة بعمل الرسول حتى يتهيأ لكافة الناس الاستعداد لليوم الآخر عن طريق الإيمان والعمل الصالح، وحين يتخلى المسلمون عن أداء هذا العمل الهام لن يكون لأي عمل آخر أهمية عند الله، والقرآن قد نبه على أن اللعنة تحيق بمن يقترب جريمة الكتمان للبينات بعد نزولها : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

(البقرة : 159)

(3) خطأ في المنهج

إن القرآن وتعاليم الرسول هما المعيار الأصلي لدين الله، وانحراف المسلم عن الدين الإلهي ليس بالضرورة أن يكون برفض الدين، ولكن بالخضوع إلى تفسير غير مطابق لحقيقة الدين، فإذا كان القرآن هو منبع تفسيرك ودينك فسوف يكون هذا التفسير المصدر المعبر عن فكرك كله، وإذا كان تفسيرك وفهمك للدين مقتبساً من مصدر آخر فسوف يكون ذلك المصدر هو المعبر والمهيمن على فكرك، ولا يمكن أن تقوم الوحدة بينك وبين دين الله على المستوى الشعوري حتى تتخلى عن كل الأفكار والآراء والمعايير المتناقضة مع كتاب الله وهي عملية ليست سهلة لمن لا يسيطر عليه فكر القرآن، فالإنسان كثيراً ما ينشر صدره لتفسير ما، متوهماً أنه هو التفسير الصحيح لدين الله، ولا يكفي هذا الانشراح لمصادقية أو شرعية ذلك التفسير لكونه نافعاً أو جذاباً في جانب ما، ليصبح صادقاً وشرعياً.

ولقد ظهر التفسير السياسي لدين الله في فترة تاريخية حرجة من تاريخ الإسلام، فوجد هوى في النفوس، ولم يقم العلماء بدراسة مصداقيته الشرعية، وأيدوه بمجرد القراءة السطحية، ولم يدركوا أنه قد حمل أعظم فتنة للإسلام في العصر الحديث، وكان من الصعب اكتشاف خطأ هذا التفسير بعد أن وضع في قالب نظري يلتبس على معظم الذين لا يتمعنون في نوعية الاستدلال الذي اعتمده المفسر على القضية المتعلقة به، وسنبيّن كيف أن المودودي قد انحرف انحرافاً بعيداً في تفسيره عن أصول التفسير المتفق عليها بين كل المفسرين والشراح وعلماء اللغة والدين :

ويكفي زعمه أن المسلمين في العصور المتأخرة قد فقدوا المعاني الحقيقية للدين التي كان يفهمها الجيل الأول ممن عاصروا نزول القرآن، ويعلل المودودي غياب المفاهيم الصحيحة لألفاظ الدين الأساسية بالسبب التالي :

"ولكنه في القرون التي تلت العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم في عصر نزول القرآن حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلك الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل،

وعادت منحصرة في معان ضيقة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة وذلك لسببين اثنين :

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة.

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي و نشئوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معاني كلمات (الإله) و (الرب) و (العبادة) و (الدين) ما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن، ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين بدلاً من معانيها اللغوية الأصلية".

(المصطلحات الأربعة : ص 8)

وهكذا يدعي المودودي أن المسلمين في كل العصور المتأخرة قد فقدوا على مستوى المعلومات الدين كما كان في عصر نزول القرآن، وأن المفسرين والشراح واللغويين لا يفهمون المعاني الحقيقية لألفاظ القرآن خصوصاً المصطلحات الأربعة الأساسية (الإله، الرب، الدين، العبادة). ولقد جاء المودودي ليجلي هذه المعاني التي بسبب فقدانها التبس على الناس دينهم ووقعوا في الشرك نفسه الذي جاءت دعوة الرسل للقضاء عليه، وهو شرك الحاكمية، وهو نفس الشرك الذي كان عليه أهل الجاهلية كما يزعم. وقد كتب المودودي من أجل ذلك كتابه (المصطلحات الأربعة) وهو ما سنتناوله بالنقد في السطور القادمة.

منهج (المصطلحات الأربعة)

ويعد كتاب (المصطلحات الأربعة) أهم مؤلفات المودودي التي تعرض (نظرية الحاكمية) وقد كتب هذا الكتاب سنة (1941) عام تأسيس الجماعة الإسلامية.

والمضمون الأساسي للكتاب يتركز حول معنى (الربوبية والألوهية والعبادة والدين)، وسعى فيه بكل طريقة من أجل تأكيد (المعنى السياسي) لهذه المصطلحات واعتبار هذا المعنى هو المعنى الأصلي لهذه المصطلحات، حتى وصل به التطرف إلى تعريف الدين بأنه يعني (الدولة) تقريباً، ولمقدمة الكتاب أهمية بالغة، هو يعترف فيها

بصورة مباشرة بأن هذه النظرية التفسيرية الجديدة مجهولة لكل المسلمين المتأخرين وأنه أراد أن يجليها لهم، فهو يقول :

" فمن الحق الذي لا مرأى فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة (الإله، الرب، الدين، العبادة) حجب الجهل " (المصطلحات الأربعة).

ومنهج المؤلف في الكتاب يعتمد على الشرح اللغوي لكل مصطلح من المصطلحات المذكورة، فيضع قائمة بمعانيها في ترتيب خاص، فيضع على سبيل المثال قائمة لمعنى (الرب) على النحو التالي :

- 1- الرب (بمعنى التربية والتنشئة والتنمية).
- 2- الرب (بمعنى الجمع والحشد والتهيئة).
- 3- الرب (بمعنى العهد والاستصلاح والرعاية والكفالة).
- 4- الرب (بمعنى العلاء والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف).
- 5- الرب (بمعنى التملك).

ثم يقوم بحشد مجموعة من الآيات تحت كل معنى من المعاني السابقة بالمعنى الأول والثاني والثالث والرابع والخامس، كل معنى من المعاني يستقل أحياناً – في رأيه – وأحياناً يشترك مع أحد معاني القائمة السابقة، وأحياناً يكون المعنى شاملاً لكل معاني القائمة، فيرى على سبيل المثال : أن المجموعة الثانية في قائمة الآيات تشترك في المعنى من تصور المعنى الأول. وفي القائمة الثالثة للآيات جاءت كلمة الرب مشتملة على المعاني الخمسة بأجمعها في آن واحد.

ثم يقوم بتطبيق استنتاجه على تصورات الأمم الضالة والشعوب المنحرفة التي جاء ذكرها في القرآن بداية من قوم نوح عليه السلام حتى المشركين العرب مستخدماً في ذلك شواهد من آيات القرآن، وبعض المعلومات التاريخية والقياسات النظرية عندما تعوزه الأدلة بصورة مباشرة.

التحليل اللغوي الذي أنتجه المودودي في بحث معنى الدين يمضي على نفس الأسلوب فعلى سبيل المثال: عندما يأتي معنى لفظ (الدين) يضع قائمة لكل معاني الدين في اللغة، أو المعاني المشتركة لهذا اللفظ كما هي في معاجم اللغة ثم يقوم بتصنيفها كما وردت في سياقات مختلفة في القرآن، وعلى سبيل المثال: فهو يضع القائمة التصنيفية التالية لمعنى (الدين) في القرآن :

1 - القهر والغلبة من ذي سلطة عليا.

2 - الطاعة والتعبد والعبودية من قبل خاضع لذي السلطة.

3 - الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع.

إن منهجه هذا هو دراسة المجموع الكلي للمعاني المختلفة للفظ الدين في اللغة والقرآن، من أجل أن يبرهن على أن المجموع الكلي للمعاني المختلفة للدين هو إقامته كنظام ودولة. لأنه بدون ذلك لا يمكن أن تصبح قضية إقامة الدين بمعناها الشامل هي المهمة الأساسية التي يأمر بها القرآن، ولما كانت العقبة الكبرى لتنفيذ النظام السياسي هي السلطة السياسية القائمة - سواء في الدول الإسلامية أو غير الإسلامية - فإن تغيير السلطة القائمة هي المهمة والهدف الأول لإقامة الدين طبقاً لهذا التفسير، وبذلك فقط يتسنى انتزاع السلطة لتطبيق النظام الشرعي الكامل.

وخطأ المودودي في نهجه التحليلي لمعنى "الدين" هو اعتماده على (المجموع الكلي لمعاني الكلمة)، وخطأ هذا الاستدلال في التفسير والبرهنة واضح من أول سورة في القرآن، فكلمة "الدين" في سورة الفاتحة قد استعملت لتعطي معنى "الحساب والجزاء" فإذا اعتمدنا هذه الطريقة في التفسير والاستدلال فهذا يعني أنه لكي نقيم الدين فعلى المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم لأحداث يوم الحساب لتتم مكافأة الناس أو معاقبتهم على أعمالهم.

يقول الأستاذ وحيد خان : " إن كلمة واحدة نجد لها في اللغة عادة أكثر من معنى، فكلمة الدين استعملت مرات عديدة في القرآن في سياقات مختلفة في كل حالة أو مثال، إنه ليس من المعقول أن نضع قائمة لكل هذه المعاني والتعريفات في آن واحد، إننا يمكن أن نفهم معنى الكلمة بدراسة علاقتها بسياق الكلام الذي وردت فيه فقط وليس بدراسة المجموع الكلي للمعاني المختلفة".

(إقامة الدين / مجلة الرسالة الإنجليزية - عدد 55 - 1988 دلهي)

فالمودودي يشير مثلاً إلى آيات وردت فيها كلمة الدين بمعنى قوانين الشريعة والتعاليم بالإضافة إلى المواد المتعلقة بالعقيدة في سياق ما، وبهذا يحاول إقناع القارئ بأن النظم وجميع التعاليم هي جزء من ذلك الدين المشار إليه في الآيات، وهذا بخلاف ما هو في سياق الآيات، نظراً لأنه لم يجد آيات تدل مباشرة على أن هدف الرسل الأصلي هو إقامة النظام السياسي الإلهي أو إقامة الدولة الإلهية، وعلى سبيل المثال أنظر كيف يفسر الآية التالية:

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)

(الشورى : 13)

فلقد فسر المودودي المراد بالدين في هذه الآية، الأحكام الشرعية كافة التي نجدها في الإسلام كالفردية والاجتماعية الشعبية والدولية، ومعنى الإقامة تنفيذها، وعلى ذلك فهذه الآية تأمرنا بإقامة النظام الشرعي في الحياة الإنسانية بكامله.
(تفهيم القرآن / المجلد 6 / 488 - 490)

ولقد كتب المودودي ذلك في تفسيره رداً - بصورة غير مباشرة - على من يعتقد خلاف هذا التفسير، وكتب وحيد الدين خان معلقاً عليه : "إنّ الدين الإلهي الكامل يكمن في التعاليم الأساسية، إن الذي يقيم هذه التعاليم يقيم الدين الكامل في نظر الله، ويعد إيمانه كاملاً، إن الدين - في حقيقته الجوهرية - ليس نظاماً خارجياً يتطلب السلطة لتنفيذه وإرغام البشر عليه، بل إن الدين في الحقيقة نموذج فردي للحياة، ووجود الإنسان الوجود الذي يحيا به خلال مراحل حياته والوجود الذي يولد به وينتهي به هو الذي يجب أن يصطبغ بالدين، وهو الوجود الذي يجب أن يصاغ وفقاً لمشئئة الله، هذا هو معنى إقامة الدين بصورة أساسية، إن وجود الإنسان لا يمكن أن يحيط به أي قانون أو أية مؤسسة سياسية، إنه يمكن السيطرة عليه من خلال إرادته الشخصية فحسب، إن الإنسان لا يحكم من قبل الآخرين ولكن يحكم من قبل نفسه، وعليه فإن إقامة الدين تعني أن ينفذه الإنسان على نفسه بمحض إرادته الحرة، أما السعي وراء المعارضة السياسية للحكام، ولجلد الآخرين على ظهورهم فليس هو الطريق الصحيح لإقامة الدين".

(إقامة الدين - مجلة الرسالة - أغسطس - عدد 55 / 1988 - دلهي)

ويعقب وحيد الدين خان أيضاً على تفسير المودودي للآية السابقة :

"ولوأُمنعت في الآية لتبين لك أن الأمر بإقامة الدين ينصرف إلى الدين الذي نزل على جميع الأنبياء من نوح إلى محمد عليهم السلام، ولكن التعاليم التي نزلت على الأنبياء لم تكن واحدة كلها، بل المتفق عليه بين جميع الأنبياء هو العقائد والأصول الأساسية، بينما الشرائع المفصلة والأحكام العملية كانت مختلفة بينهم، فالمراد بالدين ذلك الذي كان مشتركاً بين الجميع". وهذا هو التفسير المتفق عليه عند المفسرين المسلمين كافة، وليس بعضهم كما زعم المودودي من أجل تهوين هذا الاتفاق".

(المصدر السابق)

وها هي أقوال المفسرين في شرح الآية السابقة :

يقول الرازي : "إنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشرعية المتفق عليها".

(أنظر التفسير الكبير 7 / 382)

ويقول الإمام شارحاً لهذه الآية : "وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة، قال الله تعالى (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال".

(التفسير الكبير / المجلد السابع : ص 382)

ويقول الشيخ أشرف على التهانوي (الهندي) : "المراد من الدين هو أصول الدين المشتركة بين جميع الشرائع، كالإيمان بالله ورسله والبعث بعد الموت.... إلخ والمراد بالإقامة أي لا تبدلوه ولا تتركوه".

(بيان القرآن - الشورى)

هذا هو رأي جميع المفسرين، منهم من ذكر العقائد المتفق عليها، وهي المطلوب الأول في هذه الآية، ومنهم من ذكر مع العقائد الأعمال التي تنفرع من هذا الأصل في حياة الإنسان، وهذه مقتطفات من كتب التفسير :

أبو العالية : الإخلاص لله وعبادته.

مجاهد : لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامة الدين. (روح المعاني)

أبو حيان : هو ما شرع لهم من العقائد المتفق عليها من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وبكتبه واليوم الآخر والجزاء فيه. (البحر المحيط).

الخازن : المراد بإقامة الدين هو توحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر وطاعة الله في أوامره ونواهيه وسائر ما يكون الرجل به مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (لباب التأويل)

الألوسي : أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه. (روح المعاني).

النيسابوري : يعني إقامة أصوله من التوحيد والنبوة والمعاد ونحو ذلك دون الفروع التي تختلف بحسب الأوقات، بقوله (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)

(غرائب القرآن على هامش ابن جرير)

القرطبي : هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون، الرجل بإقامته مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. (الجامع لأحكام القرآن)

ابن كثير : أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم.

حافظ الدين النسفي : أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد وما بينهما من الأنبياء عليهم السلام، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ)، والمراد بإقامة دين الإسلام، وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً، ولم يرد به الشرائع فإنها مختلفة. ومحل "أن أقيموا"

نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، أو رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هو إقامة الدين.

(مدارك التنزيل)

ويعقب وحيد الدين خان: "فتبين من هذه المقتبسات أنّ المفسرين قالوا بالتمسك بالتعاليم الدينية الأساسية مراعاة لألفاظ الآية، فكيف يصح – والحالة هذه – القول بتنفيذ أحكام الدين الفردية والاجتماعية في جميع شؤون الحياة، أو بعبارة أخرى، (إقامة الحكومة الإلهية)، وليس معنى هذا أن ما عدا أصول الدين لا يدخل في بحث "الإقامة" من القوانين الشرعية الاجتماعية المدنية، ولكن أريد توضيح أن إقامتها ليست مطلوبة منّا بصورة مطلقة كما يفرض علينا هذا التفسير."

(خطأ في التفسير)

ومن الآيات التي كثيراً ما يستدل بها المودودي وسيد قطب على وجوب الانقلاب السياسي، وأنه أصل الدعوة لإقامة حكم الله في الأرض الآية التالية من سورة يوسف :

(يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(يوسف : 39 – 40)

يرى المودودي أن الحكم في الآية السابقة يتعلق بالحكم السياسي (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) وهو بخلاف ما يذهب إليه المفسرين كافة: "ما تعبدون من دونه إلا أسماء". بين عجز الأصنام وضعفها فقال "ما تعبدون من دونه" أي من دون الله "إلا" ذوات أسماء لا معاني لها، وقيل المقصود بالأسماء المسميات، أي ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم لأنها جمادات".

(القرطبي : 9 - 192)

إن الإشارة – كما ذهب القرطبي وكل المفسرين – إلى عبادة الأوثان "أرباب متفرقون" وليس العبادة المقصودة هنا عبادة السلطة السياسية، وحقيقة ذلك أن المشركين في الماضي كانوا يتخذون أوثاناً وأصناماً يتألهون لها بشتى أنواع العبادات، مفترضين

أنها آلهة أو تمثل آلهة في السماء وهي مظهرها الأرضي، فكانت عبادتهم إياها على مجرد التوهم والتخرص وأسماء أو صفات وصفوها بها دون أن يكون لها حقيقة أسماء سميتموها تدل على أن المراد عمل وأثر كان يظهر بواسطة هذه المعبودات لا حقيقة له بل هي افتراضات العابدين، فالمعبود هم الأصنام وليس بحاكم سياسي.
(وحيد الدين خان : التفسير السياسي للدين)

ويوضح ذلك قوله تعالى في سورة النجم : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (23))

(النجم : 19 – 23)

وكان دأب المشركين في كل وقت هو اعتقادهم أن هذه المعبودات تنفع وتضر وتحقق لهم ما يصبون له وما يعلقون عليها الأمانى أو (البركات المزعومة) في شؤونهم الدنيوية والأخروية كما سجل عليهم القرآن :
(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)
(يونس : 18)

ويحسبون هؤلاء المعبودات وسائط بينهم وبين الله لها من التصرف والمشئنة في (الحكم ما فوق الطبيعي)
(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ)

(الزمر : 3)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكُمُ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
(يونس : 18)

وعلى هذا لا يصح أن تؤخذ هذه الآيات كاستدلال لمعنى الحكم السياسي، باعتباره هدف دعوة يوسف عليه السلام كما ذهب المودودي وسيد قطب.

ومن الآيات التي كثيراً ما يستدل بها المودودي وسيد قطب على نفس القضية وهي "أن إقامة حكم الله هو أصل الدعوة، ووجوب الانقلاب السياسي لذلك، وهو هدف الرسل الأصلي، الآية من سورة المائدة التي تقول:

(وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

(المائدة : 44)

في سياق غير السياق الصحيح الذي ورد فيه المعنى. وعندما أراد الخوارج في السابق تطبيق هذه الآية على نفس القضية، رد ابن عباس رضي الله عنه : "ليس بالكفر الذي تذهبون إليه". لقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يفهمون القرآن فجعلوا للكفر أصلاً دون فروعه، لا ينقل صاحبه عن ملة الإسلام. من ذلك قول ابن عباس عندما سئل عن : (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) قال : هي به كفر. قال ابن طاووس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً "كفر لا ينقل عن الملة". وعن عطاء : "كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق". وكل هذه الروايات صحيحة الإسناد.

(أنظر ابن تيمية / الإيمان)

وعلى العموم فالآية السابقة لا يمكن الاستدلال بها على مهمة الرسل الأصلية أو الاستدلال بها على وجوب الانقلاب السياسي فهي آية تتعلق بكل مسلم يقتضي إيمانه أن يقوم حكمه على أساس القسط والعدل، وهي ليست خاصة بأهل السلطة دون غيرهم بل تشمل كل المسلمين.

ومن الاستدلالات الخاطئة على قضية الحاكمية السياسية التي يلجأ إليها المودودي وسيد قطب الاستدلال بالآية التالية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(التوبة : 31)

إن هذه الآية نزلت في خصوص طائفة من أهل الكتاب يعتقدون العصمة والقدسية في رجال الدين عندهم (أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ) فيقدمون أقوالهم على كتاب الله ويتبعونهم على تبديل دين الله من تحليل الحرام وتحريم الحلال، فيعتقدون بذلك، وهو ما يفعلونه حتى هذا الوقت، ويعقدون لذلك مجامع خاصة يصدررون فيها ما يرونه من قرارات

ويعاملونها معاملة الدين المنزل، يحيطونها بالقدسية كما يحيطون رؤسائهم في الدين بالعصمة والقدسية، وهذا هو الشرك الذي ذمهم الله عليه، بأن يجعلوا كلام وقرارات الأبحار والرهبان في مرتبة أحكام وتعاليم الخالق، وتجاوزوا الحد فخالفوا أوامر الخالق واتبعوا ما شرعه لهم هؤلاء الأبحار والرهبان وكما هو معلوم في الدين أنه لا عصمة ولا قدسية لمجتهد فيما لا نص فيه، ولو كان مصيباً، فكيف إذا كان اجتهاده يخالف نصاً قاطعاً من آية محكمة أو حديث صحيح، وهذا قد يقع من بعض المسلمين ممن يقعون في تقديس رؤسائهم في الدين (الشيوخ) فيتبعونهم - بلا بصيرة - في أقوالهم وإن خالفت قول الله ورسوله لما يعتقدون فيهم من العصمة والقدسية التي لم ينزل الله بها من سلطان، وذلك هو الشرك نعوذ بالله منه، ولقد أورد الإمام ابن تيمية الأثر التالي في تفسير الآية : قال الربيع عن أنس قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل قال : "كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا لن نسبق أبحارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستصحبوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم".

(كتاب الإيمان : ص 64)

"والحق أن قداسة أولي الأمر أو الظن أن أوامرهم كأوامر الله تعالى، أو أن يحرموا ما أحله الله كله معدوم الوجود بين غالب المسلمين".

(من كتاب : دعاة لا قضاة : ص 154)

فالآية كما هي واضحة تنطبق على رجال الدين لا رجال السياسة، لأن رجال الدين موضع القدوة والقداسة الدينية، فإذا قالوا شيئاً اعتبره الناس ديناً. ونظراً لخطورة هذا الأمر فإن الله قد جعل متابعتهم على الباطل عبادة وشركاً أي أن أخذ أقوال رجال الدين ليس باعتبار شخصياتهم ولكن باعتبارها تتفق مع الكتاب أو لا تتفق، ولا يجوز اعتبارهم معياراً للدين لأنه ليس ثمة قداسة حقيقية لأقوالهم إلا بقدر ما تكون متفقة مع الكتاب والسنة، فإذا خالفت فإنه من الشرك إتباعهم، فعندما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة من تقديس البشر تتحول عنده المسألة إلى عبادة وتألوه لا اقتداء، فالشرك في جوهره خطأ نابع من التوجه الداخلي بالدرجة الأولى لا من السلطة الخارجية المفروضة. يقول عباس محمود العقاد : " ويكاد الذين كتبوا في تاريخ العقائد يتفقون على تهوين خطر الحكم المستبد على الضمير الإنساني بالقياس إلى خطر العرق أو الخديعة من رؤساء الأديان،

لأن الحكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء الدين".

(التفكير فريضة إسلامية / دار الكتاب العربي – بيروت 1971 - ص 31)

فرعون وآله

أحد الأمثلة البارزة على خطأ التحليل الذي وقع فيه المودودي ما يتعلق بقضية فرعون وآله، يقول المودودي في محاولة لتبرئة فرعون من الشرك في الربوبية والألوهية وإثباتها عليه في الحاكمية السياسية : "هيا بنا ننظر الآن في قضية فرعون وآله مما قد شاع عنهم في الناس من الأخطاء أكثر مما شاع فيهم من نمrud وقومه. فالظن الشائع أن فرعون لم يكن منكراً لوجود الله تعالى فحسب، بل كان يدعي الألوهية لنفسه أيضاً، ومعناه أنه قد بلغت منه السفاهة أنه كان يجاهر على رؤوس الناس بدعوى أنه فاطر السماوات والأرض، وكانت حاشيته من البلبه والحماقة أنها كانت تؤمن بدعواه تلك، والحق الذي يشهد به القرآن والتاريخ هو أن فرعون لم يكن يختلف ضلاله في باب الألوهية عن ضلال النمرد، ولا كان يختلف ضلال آله عن ضلال قوم نمrud".

(المصطلحات الأربعة ص : 60، ط 4)

ويستمر المودودي في تحليل كفر فرعون على مستوى آخر وهو ما يسميه بالعصبية الوطنية ضد بني إسرائيل : "وإنما الفرق بين هؤلاء "قوم النمرد" وأولئك "قوم فرعون" أنه قد نشأ في آل فرعون لبعض الأسباب السياسية عناد وتعصب وطني شديد على بني إسرائيل، فكانوا لمجرد هذا العناد يمتنعون من الإيمان بألوهيته وربوبيته، وإن كانت قلوبهم تعترف بها شأن أكثر الملحدين الماديين في عصرنا هذا".

(المصدر السابق ص : 60)

ونلاحظ في الاقتباس السابق الأخطاء التالية :

1- اتهام المفسرين والشرح بصورة غير مباشرة بالأخطاء والأكاذيب، لأن المفسرين كافة يقولون أن فرعون كان منكراً لوجود الله وكان يدعي الألوهية. وهو نفس الأمر الذي صرح به القرآن: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

2- اعتباره أن فرعون قد امتنع عن الإيمان بالله نتيجة العصبية الوطنية ضد بني إسرائيل، ومع أن قوله هذا يتناقض مع القول السابق، فإن التعليل لكفر فرعون أمر

ثانوي بعد إثباته في حقه. وسبب كفر فرعون الرئيس ذكره القرآن مراراً وهو الكبر والعلو في الأرض، ووردت فيه العديد من الآيات.

3 - أن القرآن يعلمنا أن فرعون قد اعترف بالله في اللحظة التي عرف أنه قد أوشك على الغرق (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(يونس 90)

4 - لقد حدد القرآن في آيات كثيرة مهمة موسى بالنسبة لفرعون وقومه ولم يذكر أنه اشترط على فرعون التخلي عن السلطة بل العكس تماماً، فإنه قد طلب في حالة عدم استجابة فرعون وقومه لدعوته ، أن يخلي بينه وبين بني إسرائيل ويعتزلوه (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (21))

(الدخان : 17 - 21)

5 - اعتبر المودودي أن دعوى فرعون الأصلية بمنازعته لله السلطة السياسية في مصر. يقول المودودي : " ولم تكن دعوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية، بل الألوهية السياسية : فكان يزعم أنه الرب الأعلى لأرض مصر ومن فيها بالمعنى الثالث والرابع والخامس لكلمة (الرب) ويقول أنا مالك القطر المصري وما فيه من الغنى والثروة وأنا الحقيق بالحاكمة المطلقة فيه وشخصيتي المركزية هي الأساس لمدينة مصر واجتماعها، وإذن ما يجرين فيها إلا شريعتي وقانوني".

(المصطلحات الأربعة ص : 76)

6 - إن المودودي أراد أن يثبت أن فرعون لم يكن يدعي الألوهية والربوبية في دائرة ما فوق الطبيعة بل يدعيها في نطاق الدائرة السياسية والقانونية وبالتالي فإن المودودي يزعم أنه رفض دعوة موسى لهذا السبب بالدرجة الأولى يقول المودودي : "من هنا كان فرعون ورؤساء حكومته يعلون أصواتهم المرة بعد المرة بأن موسى وهارون عليهما السلام قد جاءا يسلباننا أرض مصر وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية ليستبدلا بهما ما يشاءان من النظم والقواعد". ويمضي المودودي في الاستدلال على القضية السالفة بآيات تبرر دعوة المودودي المطابقة في نفس الوقت لدعوى

فرعون في رفضه الحق ودعوة التوحيد. ومن هذه الآيات التي ذكر الله فيها تكذيب فرعون وملائه وكذبهم على نبي الله موسى تبريراً لموقفهم أمام الناس :
(قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَىٰ)

(طه : 63)

فيستدل المودودي بكلام ملا فرعون على مهمة موسى بدلاً من أقوال موسى عليه السلام ومن استدلالات المودودي أن فرعون لم يكن يدعي الربوبية ما يلي : "والظاهر أن فرعون لو كان يدعي لنفسه الربوبية فيما فوق الحكم الطبيعي، أي لو كان يدعي أنه هو الغالب المتصرف في نظام الأسباب في هذا العالم وأنه لا إله ولا رب غيره في السماوات والأرض، لم يعبد الآلهة الأخرى أبداً".

(المصطلحات ص 72)

7 - إن القرآن قد ذكر صراحة ادعاء فرعون الربوبية والألوهية، ومن ذلك قوله :

أ - (يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي)

(القصص : 38)

ب - (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29))

(الشعراء : 23 - 29)

والحقيقة كما في الآيات السابقة أنّ فرعون كان يدعي حق الألوهية والربوبية وأنه مظهر الإله المعبود السماوي (رع) الشمس كما كان الفراعنة كلهم يعتقدون في ألوهية الشمس وفرعون باعتباره مظهرها الأرضي كما يدعي سائر الملوك في الماضي أنهم أبناء الآلهة ومظهرها الأرضي.

حقيقة الشرك

إنَّ الشرك الذي كان يسود في الماضي هو شرك في الربوبية والألوهية، وهو أصل الشرك الذي جاء الرسل كافة -بما في ذلك خاتم النبيين- لدحضه والدعوة إلى إبطاله :

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)
(فاطر : 13 - 14)

ومن تحليل معنى "شرك الربوبية" في آيات القرآن نفهم أن المشركين كانوا يعتقدون أنَّ معبوداتهم أياً كانت هذه المعبودات (أصنام أو أوثان أو ملائكة صالحين أو أنبياء أو شياطين أو كواكب أو نجوم....) أي كل ما اتخذته الإنسان من معبود دون الله بصورة كلية أو مع الله بصورة جزئية، وقد فعلوا ذلك لاعتقادهم أن هذه المعبودات لها تأثير ونفوذ وسيطرة في دائرة (الحكم ما فوق الطبيعي). فهي إما أن تستقل بالتصرف والمشينة دون الله أو تشاركه فيها، أي أن المشركين يعتقدون أنها ذات (بركات) فيستعينون بها، ولذلك يدعون أنها نافعة وضارة وقادرة على حمايتهم ونصرتهم فيتخذونها سنداً وعزاً من دون الله أو مع الله ويستغيثون بها في النوازل، فكان مدار اعتقادهم الخطأ في توهمهم أن هذه الآلهة المزعومة لها التدخل والتصرف الكامل أو شيئاً من التدخل والتصرف مع الله في هذا الكون، فيقدمون عبادتهم لها عن طريق النذور والقرايين والتذلل والخضوع أمامها، وهذا هو تحليل (شرك الألوهية). أي أنَّ النوع الثاني من الشرك مبني على النوع الأول، لأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية، فإذا وقف الإنسان عند الأول (الإقرار بخالق السماوات والأرض والإقرار بأنه الرزاق دون أن يلحقه الخضوع له وحده بالتذلل والخشية والمحبة، فإن ذلك يكون توحيداً ناقصاً، فإذا صرف تذلل وخضوعه بصورة كلية أو جزئية لغير الله فإنه قد ارتكب بذلك جريمة (الشرك)، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بإبطال العبادة لغيره وصرفها له وحده، فلا تصرف لوثن أو لملك أو نبي أو شيطان ...

ولكن المودودي يجعل أصل الشرك في نطاق الحكم السياسي مع اعترافه بالشرك ما فوق الطبيعي، فهو يقول : "لم تكن دعوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية بل بالألوهية السياسية".

(المصطلحات الأربعة ص : 76)

ويجعله هو أساس المواجهة بين الرسل والحكام والملوك في كل وقت.

ويقول : "ومن هنا كان فرعون ورؤساء حكومته يعلنون أصواتهم المرة بعد المرة بأن موسى وهارون عليهما السلام قد جاءا يسلباننا أرض مصر وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية ليستبدلا ما يشاءان من النظم والقواعد".

(المصدر السابق ص : 77)

حقيقة الفرق

إن الخطأ الذي وقع فيه المودودي، ومن ورائه سيد قطب في تفسير حدوث المواجهة التي قامت بين الرسل وملوك وحكام الماضي يكمن في عدم إدراك الفرق بين نوع السلطة السياسية القائمة في الماضي والسلطة السياسية القائمة في العصر الحديث.

لقد كانت السلطة السياسية القائمة في الماضي مرتبطة بفلسفة دينية، وهي عقيدة الشرك، إذ كان الملوك يحكمون بإيهام الناس أنهم ظل الآلهة المعبودة أو مظهرها الأرضي، وهم لذلك يتمتعون بحق فوق الطبيعي للحكم على الناس دون الآخرين، هكذا كان يزعم الفراعنة والنماردة والقياصرة والأكاسرة والأباطرة، وعلى سبيل المثال كان فرعون قد رفض دعوة التوحيد (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي) لأنه في زعمه كان مظهر الإله (رع) وكان المصريون القدماء يتخذون من (رع) وهي الشمس معبوداً لهم، ولفظ (فرعون) يعني حرفياً: ظل أو مظهر رع. فكان يعد نفسه مظهر الشمس الأرضي، وكان رد فعله ضد دعوة التوحيد شديداً، وليس لأن موسى عليه السلام كان يدبر انقلاباً سياسياً ضده، كما هو في تفسير المودودي وسيد قطب، فمطالبة موسى كانت واضحة، وهي أنه في حالة عدم استجابة فرعون وملاه إلى ملة التوحيد، أن يخلي بينه وبين بني إسرائيل (قوم موسى)، وأن يعتزلوه :

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِّلُونِ (21))

(الدخان : 18 - 21)

وكانت هذه الفتنة هي أكبر عقبة أمام حرية الاعتقاد، وهي ناجمة عن ارتباط نظام الحكم بعقائد فوق الطبيعية بسبب عقيدة الشرك السائدة في ذلك الوقت حتى ظهر

الإسلام، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يزيل هذه الفتنة التي كانت تحول بين الناس وحرية الاعتقاد فأمر رسوله وأتباعه بالقتال لإنهاء هذه المهمة :
(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

(الأنفال : 39)

وكانت الدعوة موجهة لإزالة فتنة الشرك الجارح. قال ابن عباس : "الفتنة بمعنى الشرك". وزالت فعلاً هذه الفتنة لأول مرة في التاريخ البشري، ولم يعد الحكم السياسي يقوم على فلسفة الشرك، بل يقوم لأسباب سياسية فحسب، واليوم في القرن العشرين لو قمت بالدعوة للتوحيد في أي مكان من العالم لن تجد معاملة النمرود لإبراهيم عليه السلام ولا معاملة المشركين لصحابة رسول الله عليه السلام، والسبب في هذا أن العصر قد تغير كلياً، وصار الشرك اليوم عقيدة دينية محدودة، والحكام في العصر الحديث لا يعدون هذه العقيدة ذات علاقة بالسياسة، فهم قد حصلوا على الحكم السياسي عن طريق عوامل وأسباب سياسية بحتة، أي أسباب الطبيعية وليس بناء على حق فوق طبيعي، فهم لذلك لا يرون التوحيد خطراً عليهم كما كان حكام العصور القديمة الذين يربطون السلطة بالشرك.

ونحن اليوم نتمتع بحرية الدين وحرية الدعوة بعد أن زالت العقبة التي كانت تحول بين الناس وقبول التوحيد، وذلك بعد القضاء على فتنة الشرك الجارح. ولقد ورد ما يفيد أن الصحابة كانوا على وعي بهذا الأمر بصورة واضحة جلية :

عبد الله بن عمر

عن ابن عمر أنه : "أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي (صلى الله عليه وسلم) فما يمنحك أن تخرج ؟ فقال : يمنعي أن الله حرم دم أخي. فقالا : ألم يقل الله : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، وحتى يكون الدين لغير الله.

(أخرجه البخاري / تفسير سورة البقرة)

(وأنظر تفسير ابن كثير / 1- 403)

وعن نافع "أن رجلاً أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتقيم عاماً وتقيم عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب

الله فيه ؟ فقال : يا ابن أخي بني الإسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت. وقالوا : يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

(الحجرات : 9)

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

(الأنفال : 39)

قال : فعلنا ذلك على عهد رسوله (صلى الله عليه وسلم) وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.
(أخرجه البخاري / تفسير البقرة / وأنظر : تفسير ابن كثير 1 / 403)

وبعد أن قام الصحابة بهذا الدور العظيم في التأريخ البشري ظهرت حرية الاعتقاد في الفكر الإنساني الحديث بعد أن وصلت آثار الثورة الفكرية الإسلامية إلى أوروبا، فكان يقتضي على الدعاة إلى الإسلام في هذا العصر أن يدركوا أن المبدأ الذي شرعه القرآن :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(البقرة : 256)

صار الآن لأول مرة مبدأً إنسانياً معترفاً به، فنقول المادة الثامنة عشر من إعلان هيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان : "لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الأعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر، ومراعاتها سواء أكان ذلك بصورة خاصة أو مع الجماعة".

وتقول المادة التاسعة عشرة : "لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل واستقاء الأنبياء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية".

وهكذا صارت الفرص متاحة لعقيدة التوحيد أن تنتشر بالوسائل السلمية وعن طريق استخدام كافة قوى العصر الحديثة للإعلام بدون خوف أو حدود، وعلى الذين يقومون بالدعوة الإسلامية أن يستفيدوا من هذه الفرص العظيمة والجو السلمي المتسامح لنشر رسالة الإسلام، وأكبر جريمة في حق دين الله هي إعادة الفتنة.

يقول وحيد الدين خان : "إن الخطر الفاحش الذي جاء نتيجة جعل الإسلام سياسة، هو أنَّ الفتنة التي أنهاها النبي وأصحابه بعد توضيحات بالغة، قد عادت من جديد في التاريخ الإسلامي.

لقد امتزجت السياسة بالشرك في العصور القديمة، والأسرة الحاكمة كانت تحكم الناس بعد أن ترسخ في قرارة نفوسهم العقيدة القائلة بأنهم أبناء الآلهة، وأنهم شركاء في ألوهية الرب، ومظهر دنبيوي لآلهة سماوية، وبناء على ذلك كلما نهضت دعوة للتوحيد الخالص كان هؤلاء الحكام – الذين كان حكمهم يقوم على أساس الشرك – يعدونها حركة تمرد ضد حكوماتهم، ومن ثمَّ كانوا يبذلون كل رخيص وغال في سبيل قمع هذا النوع من النشاط، وبذلك أصبحت الدعوة في انطلاقتها عرضة للعقبات، إذ كانت تشكل معارضة صارمة للحكام، ومن ثم نجد القرآن يأمر :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

(الأنفال : 39)

والمقصود أن ينتهي شأن أهل الشرك الذي يشكل الفتنة للموحدين ويمنعهم من اختيار دين التوحيد، وأن يتم فصل العقيدة الإلهية عن الإدارة السياسية ليصبح الدين كله نشاطاً ربانياً محضاً، وليس نشاطاً سياسياً. فلا تبقى أية علاقة بين العقيدة وشؤون السلطة، وصيرورة الدين كله لله هو أن تنتهي حالة الفتنة بحيث لا تبقى السلطة حائلاً بين البشر وعقيدة التوحيد.

إن النصر الذي حققه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قد أزاح الشرك من منصب السلطة وأنهى العلاقة بين العقيدة الدينية والإدارة السياسية للأبد. ومن ثمَّ نشأت فرصة لأول مرة في التاريخ بإمكانية الاستمرار في الدعوة للتوحيد بدون مخاطرة الصدام مع الإدارة السياسية إلا أن المسلمين قد أعادوا تلك المشكلات في طريق

نشاطات الدعوة تحت عناوين جديدة، وكان أول مثال على ذلك : جعل خلافة أهل البيت من قضايا العقيدة وهو ما حدث في القرن الأول الهجري.

والمثال الآخر نجده في العصر الحديث تحت شعارات "المسؤولية المطلقة للأمة الإسلامية في تنفيذ القوانين الإسلامية كاملة". وقد جعل هذا التصور الأعمال السياسية من قضايا العقيدة، ومن ثمّ بدأ المسلمون يتناحرون مع الحكام باسم "تنفيذ القوانين الإسلامية الكاملة". وأصبحت الإدارة السياسية – تحت عنوان جديد – معارضة للإسلام كما كان الوضع قبل خمسة عشر قرناً.

لقد ثبت من أحاديث الرسول أنّ أخطر شيء أحس به ونبه إليه (صلى الله عليه وسلم) هو ما يطرأ بعده من تناحر المسلمين فيما بينهم، وقد ثبتت مصداقية هذا الإحساس بشواهد التاريخ والواقع، إنها حقيقة أنّ المسلمين منصرفون إلى التناحر فيما بينهم مما لا نجد له مثلاً عند الشعوب الأخرى بل نجد الشعوب الأخرى متفوقون في حروبهم ضد الآخرين بينما المسلمون بلغوا القمة في التناحر والقتل وإراقة الدماء فيما بينهم، ويعود سبب ذلك إلى ما حدث من جعل السياسة عقيدة، ولو استقصينا الحروب الأهلية التي نشبت بين المسلمين في الماضي لوجدنا أن وراءها يد محرّكة لهؤلاء الذين سبق أن جعلوا من الخلافة حق تحتفظ به أسرة بعينها، وما عدا ذلك لا يجوز لأي واحد أن يحكم أو يسيطر على المسلمين.

ولقد أزاحت الحركة العلمية المعاصرة، وفكرة الديمقراطية، هذه العقيدة من عقول الناس، إلا أنه في الوقت نفسه نشأت نظرية تنص على الوجوب المطلق لتطبيق القوانين الإسلامية، وقد نفخت الروح من جديد – تحت عنوان جديد – في تلك الحرب الأهلية مما أحيّاها من جديد في أوساط المسلمين".

(وحيد الدين خان : الدعوة الإسلامية)

(4) نوعية التحريف

ما هي نوعية التحريف التي ظهرت في التفسير السياسي للدين؟

لقد غير التفسير السياسي ترتيب العلاقات بين عناصره، فاختلف بذلك الترتيب الأصلي وظهر ترتيب جديد، فزالت خاصيته تبعاً لذلك، وكما هو معلوم أن تغير نمط ترتيب عناصر أو أجزاء تركيب ما يتبعه من زوال خاصيته الأصلية (حطم النمط تزول الخاصية). فلقد جعل التفسير الجديد الأهمية الأولى للسياسة فحلت السياسة مكان العبادة (الرابطه الأصلية الشاملة) وهي عنوان العلاقة بين العبد وخالقه، والوحدة التي تدور حولها كافة تعاليم الدين، فإذا حولت هذه الرابطه الأصلية وجعلت محلها رابطه (النظام الأساسي) فلقد حدث أكبر تحريف في تفسير الدين، ورغم أن هذا التحريف ليس في إضافة شيء أو حذفه من الدين، إلا أن البدعة في الدين لا تكون بإضافة شيء أو حذفه فحسب، بل من البدعة والبدعة الكبرى تقديمه في غير تفسيره الصحيح بوضعه في غير ترتيبه وبنيته الأصلية، فالتفسير السياسي نجده قد احتوى كافة عناصر الدين ولكن ليس في ترتيبها الصحيح. حيث صارت المقترضات فيه تحتل مكان الأصل وتحولت المهمة السياسية المهمة الأصلية للدين.

إن أهم ما يلاحظه الأستاذ وحيد الدين خان حول هذا التفسير هو أن العلاقات بين عناصر الدين قد اختلت وفقدت ترتيبها الإلهي الصحيح كما هي في الأصل، واتخذت ترتيباً جديداً. وذلك على النحو التالي :

1 - المساواة بين الأصل ومقتضياته .

2 - إحلال المقترضات محل الأصل وتفرع الأمور منها .

3 - تقديم المقترضات على أنها الدعوة الأساسية للقرآن .

الدرجة الأولى : إن الأستاذ المودودي يعرف العبادة : "العبادة ليست بمعنى الشعائر والمناسك فحسب، بل العبد الذي يعيش عيشة العبودية فحياته كلها عبادة".

(نظرية الإسلام وهدية ص : 16)

إن هذا المعنى ليس به خطأ إلا عندما أصر المودودي على جعل أصل العبادة ومقتضياتها في مرتبة واحدة في كل حال دون مراعاة أحوال المكلفين.

يقول الأستاذ وحيد الدين : "إن أحكام الدين متشابهة ومتطابقة شكلاً، ولكن علاقتنا بهذه الأحكام ليست على قدم المساواة ... فالقرآن على سبيل المثال يأمرنا : (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ) (الأنعام : 72)

وفي مكان آخر يأمرنا بنفس الصيغة (وَآتُوا الزَّكَاةَ) (البقرة : 83)
إن كلا الأمرين متشابهين وفي صيغة أمر واحد ، ولكن انطباقهما علينا ليس متشابهاً، فالأمر بالصلاة أمر مطلق وهو مطلوب من كل مؤمن بالضرورة، أما الأمر بالزكاة فمشروط بتملك النصاب القانوني من الأموال، فالذي يملك النصاب القانوني من الأموال مطالب بالامتثال لهذا الأمر كامتثاله لأمر الصلاة، أما الذي لا يملك النصاب فليس مطالباً بأداء الزكاة ولا هو مطالب بالسعي لتملك النصاب حتى يمتثل للأمر بأدائها".

(حكمة الدين : ص 56)

لقد عرف الأستاذ المودودي العبادة بطريقة شمولية حيث وضع كافة عناصرها في مستوى واحد ودون مراعاة الفرق بين أصل العبادة ومقتضياتها. وهذه بداية الخطأ. إن التعريف التحليلي هو الذي يبين حقيقة الأصل المطلوب : "لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال المحبة".

(رسالة العبودية ص : 28)

"لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة".

(الطبري : 1 / 69)

وتأويل إياك نعبد : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك يا ربنا بالربوبية لك لا لغيرك لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وأنها تسمى الطريق المذل الذي وطنته الأقدام وذللته السابلة فصار معبداً، ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

تبارى عتافاً ناجيات واتبعت

يعني بالمور الطريق، وبالمعبد : المذلول الموطوء، ومنه قيل للبعير المذل المركوب، ومنه سمي العبد عبداً لذلته لمولاه".

(الطبري : 1 / 69 - ط الحلبي)

والمقصود أن العبادة في أصلها هي العلاقة المباشرة بالخضوع والتذلل والإذعان لربوبية الخالق، وبالنسبة لمقتضياتها فهي تتعلق بالسلوك الخارجي الذي يقوم به المسلم عند ممارسته لعلاقته الاجتماعية. وفي الحديث : "الحياء من الإيمان" وكذلك إمطة الأذى من الطريق ... كل هذه شعب وفروع للإيمان الذي أصله الإيمان بالله وإخلاص العبادة له، ولا يمكن أن نسوي بين أصل العبادة وإمطة الأذى عن الطريق ونعطيها درجة واحدة. والمودودي لم يفرق بين أصل العبادة ومقتضياتها.

"إن العبادة تشمل الشريعة كلها، فكل ما يأتيه المؤمن لإرضاء ربه وتنفيذ أوامره هو من العبادة، ولكن العبادة في أساسها نوع معين من الأعمال بين العبد وربّه، أما ما يقوم به العبد مع عبد آخر فهو مقتضيات العبادة، إن العمل الذي يقوم بين العبد وربّه مباشرة هو العبادة ذاتها. فالعبد يعبد ربه مباشرة حين يصلي، وحين يدلي بشاهدته الصدق في قاعة المحكمة إنما يفعل ذلك مراعاة لمقتضيات عبادته لله.

إن هذه المقتضيات واجبة كالعبادة نفسها ولكن يجب أن لا نتجاهل الفرق الكبير بين نوعي العبادة (العمل التعبدية نفسه ثم مقتضياتها) وإلا ضاع منّا التصور الصحيح للأعمال الدينية، وذلك لأن المقتضيات دائماً ثانوية، ولا تكون مطلوبة إلا لسبب آخر أساسي، بينما يكون الدين الأساسي مطلوباً لذاته وبصفة مطلقة، ومثاله كأن نقول : "من مقتضيات الإسلام أن يورث المسلم تركته حسب القانون الإلهي" ... ليس معنى هذا القول أنه يجب على كل مسلم أن يحاول امتلاك بعض الأموال والعقارات حتى يتمكن من تنفيذ الأحكام الإسلامية الخاصة بالميراث. إن هذا القول يعني فقط، أن على كل مسلم أن يقسم ما لديه من أموال لمن يستحقونها من ذويه حسب القوانين الإسلامية. إنّ هذا الواجب مطلوب ممن يمتلكون شيئاً، وهو ليس بمطلوب ممن لا يمتلكون شيئاً".

(المصدر السابق ص : 61)

الدرجة الثانية : إن الخطأ الثاني الذي وقع فيه التفسير السياسي هو جعل المقتضيات أصلاً للدين. يقول المودودي : "معنى الدين في هذا العصر الحكومة (STATE) تقريباً، أن يستسلم الناس أمام قوة جبارة قاهرة ويذعنوا لها هذه هي الحكومة وهذا هو

معنى الدين أيضاً، والدين الحق هو أن يستسلم المرء أمام قوة الله تعالى وأن يعبدته ويطيعه معرضاً عن طاعة الآخرين بما في ذلك نفسه الحقيقة، جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنظام دولة من عند الله لا مجال لخيار الإنسان فيه ولا مجال لشخص أن يحكم على عباد الله تعالى. الحكم والأمر لله الواحد القهار فقط".

(المسلمون والعصر السياسي / ج 3)

وعبر سيد قطب عن المفهوم الجديد بقوله : "إنَّ وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين".

(أنظر أحمد فائز : طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 21)

فالمعيار النهائي للإيمان والتوحيد والعبادة هو وجود هذه الحاكمية، فهي "مناطق الإيمان أو الكفر وميزان الجاهلية أو الإسلام".

(المصدر السابق ص : 21)

ومن هنا قرر هذا التفسير إقرار الحاكمية في الواقع الخارجي، أي الدعوة إلى إقامة النظام الإسلامي كهدف مطلق ونهائي ولا يجوز الصبر عليه مهما كانت الأحوال وهو أصل التوحيد، وقاعدة الدعوة : "يجب أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس إلى إعادة إنشاء الدين يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون، ويجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي. وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، إقرارها في ضماناتهم وشعائيرهم وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم، ولتكن هذه القضية أساس دعوتهم إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة".

(طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 175)

ويقول سيد قطب في تعريف الجاهلية الحديثة وفق مفهوم الحاكمية : "إنَّ البشرية اليوم بجملتها تزاوَل رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي جاهلية تتمثل في صور شتى بعضها يتمثل في إلحاد بالله سبحانه وإنكار لوجوده فهي جاهلية اعتقاد كجاهلية الشيوعيين ... وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه

بوجود الله سبحانه وانحراف في الشعائر التعبدية وفي الدينونة والأتباع والطاعة كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم، وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك ... وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه وأداء الشعائر التعبدية مع انحراف خطير في تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومع شرك كامل في الدينونة والأتباع والطاعة، وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم مسلمين ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد وكلها جاهلية ... وكلها كفر بالله كالأولين أو شرك بالله كالأخرين ... إنّ رؤية الواقع على هذا النحو الواضح تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام".

(طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 164 – 165)

الدرجة الثالثة : يقول المودودي في تحديد مهمة الأنبياء : ".... إن الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله عليهم السلام في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلامية وينفذوا بها ذلك النظام الكامل للحياة الإنسانية الذي جاؤوا به من عند الله. وهؤلاء قد كانوا يسمحون لأهل الجاهلية بأن يبقوا على عقائدهم السابقة ويتبعوا طرائقهم الجاهلية ما دامت آثار أعمالهم منحصرة في أنفسهم، ولكنهم لم يبيحوا لهم – ولا كان يسعهم ذلك طبعاً – أن تبقى مقاليد السلطة والحكم بأيديهم ليديروا شؤون الحياة الإنسانية على قواعد الجاهلية، ولذلك قد سعى كل نبي وكل رسول لأحداث الانقلاب السياسي حيثما بعث، فمنهم من اقتصرتم مساعيهم على تمهيد السبيل وإعداد العدد كإبراهيم عليه السلام، منهم من أخذ فعلاً في الحركة الانقلابية ولكن انتهت رسالته قبل أن تقوم على يده الحكومة الإلهية كعيسى عليه السلام، ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كموسى عليه السلام وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)".

(تجديد الدين وإحيائه ص : 41 – 42)

وطالما أصبح الإسلام فكراً سياسياً، فمن الطبيعي أن تكون الجماعة الإسلامية جماعة سياسية، يقول الأستاذ المودودي : "بمجرد اعتناق المرء للإسلام فإنه يصبح عضواً في الجماعة الإسلامية، وتقوم الجماعة الثائرة العالمية التي يسميها القرآن بـ(حزب الله) بالجهاد في سبيل الله لنيل بغيتها، ومطلبها أن تقتلع جذور أي حكم غير

إسلامي ليؤسس مكانه بنيان حكومة مدنية اجتماعية مترنة، أطلق عليها القرآن اسماً جامعاً (كلمة الله) وهي ليست جماعة المبلغين الواعظين البسطاء، بل هي جماعة عسكرية إلهية مهمتها أن تزيل من وجه الأرض الظلم والفساد والطغيان والعناد وتقضي على حكم أرباب من دون الله، وتقيم الحسن مكان القبح، والعدل بدل الظلم، فليس لها بد من السيطرة على السلطة والحكومة، لأنه لا يمكن إقامة نظام مدينة صالحة حتى تتحرر الحكومة من أيدي المفسدين ويملكها الصالحون".

(الجهاد في سبيل الله)

وهكذا ينتهي الانحراف في تأويل رسالة القرآن إلى آخر مداه إذ تصير مهمة الرسل سياسية بالدرجة الأولى "وحتى أنهم يسمحوا لأهل الجاهلية بأن يبقوا على عقائدهم السابقة ويتبعوا طرائقهم الجاهلية ما دامت آثار أعمالهم منحصرة في أنفسهم ولكنهم لم يبيحوا لهم – ولا كان يسعهم ذلك أن تبقى مقاليد السلطة والحكم بأيديهم ليديروا شؤون الحياة الإنسانية على قواعد الجاهلية ولذلك سعى كل نبي ورسول لإحداث الانقلاب السياسي حيث بعث".

والحقيقة أن نوعية هذا الخطاب لا يتطابق لا مع القرآن ولا الفطرة ولا العقل، وهو خطاب فاشل.

الخطاب الناجح

إن الوتر الحساس الذي يقتضي من الداعية الضرب عليه ليس القوانين الشرعية الاجتماعية، بل عليه أن يبدأ من البداية التي بدأ منها كل الرسل وهي الإنذار والتبشير، وتعريف الناس بخالقهم رب السماوات والأرض ودعوتهم إلى الخضوع له وتمجيده، وهذا الخطاب يتناغم مع الفطرة الإنسانية، ويطاوع نداءها الداخلي، فتستجيب له بصورة تلقائية وتطمئن إليه : (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)، فينجم عن ذلك الخضوع والاستسلام لربها تلقائياً، ولا ينتهي هذا الخضوع عند حد تنفيذ فريضة شرعية ما، بل إنَّ الفطرة الصادقة تمضي في لهفة وشوق إلى معرفة كل ما يرضي الخالق، والسعي لتنفيذ كل أوامره بكل رغبة ورهبة ولا تصبح العبادة حينئذ مجرد أمثال شكلي لحكم من الاحكام الشرعية، بل سمو بالنفس إلى أعلى ما يمكن من القرب من الله ، إلى حدٍ تمضي فيه هذه النفس إلى أن تهب كل ما تملك في سبيل الله، وتتبنى أعظم مشروع يطرحه خالقها، وهو نصرته بالعمل في سبيل نشر رسالته في النوع البشري ودعوة الناس إلى

حضيرة الإيمان، وهكذا فإنّ يقظة صادقة لنفس مؤمنة تحدث يقظة في غيرها من النفوس، فالدعوة في الأصل لإقامة الدين في نفس الفرد، إذا سلك الطريق الصحيح فهي السبيل الوحيد ليقظة المجتمع الإنساني، وبه يحدث التحول العظيم في مجرى الحياة البشرية.

وهناك مثل واضح لقضية الدين الرئيسية (علاقة العبد بربه) في حديث الرسول الذي رواه الإمام مسلم : "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب". إن هذا الحديث يعين المركز الحقيقي للعبادة والدين وهو (قلب العبد). وتصديقه في حديث آخر رواه البخاري : "ألا إن التقوى ها هنا" وأشار الرسول إلى القلب. ومعنى هذا أن (الدين الكامل) هو علاقة الخشية والخضوع والرجاء والتوكل والمحبة، فإذا سيطر على العبد ذلك فإن كافة جوانب الدين تظهر في حياته بصورة صحيحة. فالدين الكامل لا يتعلق بالبرنامج الشامل أو البرنامج الناقص كما يدعي البعض أو الدين الشامل للسياسة والدين غير الشامل لها، بل الدين الكامل في أعماق الإنسان، فمن كان قد أدرك خالقه عن طريق الغيب ووجه له كلّ شعوره بالخضوع والاستسلام وعرف أن التصرف والمشئنة والحكم كله له وحده وأنه وحده الذي يستعان به ويلجأ إليه بالدعاء والاستكانة والتضرع، فهو قد نجح في إدراك عظمتة، ولو لم يتجلى له أمامه، فالتوحيد إدراك للخالق ومعرفة به وراء ستار عالم الأسباب، وأنه المهيمن على عالم ما فوق الأسباب الطبيعية، فهو قد عرف أنه حاكم كل نظام ومالك كل القدرة والتصرف في الكون كله ولا يملك أحد دونه ذرة في ملكه وهو القاهر فوق عباده.

ولا يعني هذا أنه لا أهمية لتطبيق الشريعة أو الاحتكام إليها أو تنفيذها، إن أحد هذه الأمور ليست واردة بالنسبة للمؤمن، ولكن المقصود هو مراعاة الفرق بين المطلوب الذي يعتمد عليه بصورة أساسية لفوز الإنسان في الآخرة ونجاته من عذاب الله وهو التوحيد، عنوان الصلة القلبية الشخصية بين العبد وخالقه، وهي بمثابة البذرة للشجرة، ولا يمكن أن تغرس شجرة ما بدون بذرتها أو جذرها الأصلي، وأنّ أي جزء آخر من الشجرة لا يمكن إعطاؤه نفس الاعتبار، كأن يزعم الإنسان أن الورقة ذات أهمية متساوية مع البذرة فهذه مقارنة غير صحيحة، وأنت لو بقيت ملايين السنين تحاول أن تغرس الشجرة من غير جذورها أو بذرتها الأصلية فلن تنبت لك هذه الشجرة، وهذا مثال فقط يوضح الفرق بين الأصل الذي تقوم عليه شجرة الدين وهو العقيدة، وبين

الفرع الذي ينمو من الأصل ولا ينمو بنفسه، وذلك مثل تطبيق النظام الإسلامي. إن إعطاء الأصل والفرع قيمة واحدة في منظور التفسير السياسي والنظامي أخلّ بالعلاقة والترتيب الطبيعي في شجرة الدين الإلهي، ومن لا يحتفظ بهذا الترتيب فهو يفقد – بدون ريب – التصور الصحيح للدين، ولو زعم بشكل جذلي أنه يملك في ذهنه كل أجزاء الدين وأنه يدعو للدين الكامل، فبدون مراعاة هذا الفارق سوف لن يكون للإنسان سوى تصور ناقص وخطأ للدين الإلهي.

ونشير مرة ثانية إلى المثل الذي قدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأساس الصلاح الإنساني :

"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" (رواه مسلم)

فالقلب في هذا التمثيل ليس إلا تمثيل لأساس الصلاح في أعمال العبد كلها، وهو صلاح وسلامة العقيدة، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله. ومعالجة الداعية للدين ينبغي أن تكون مشابهة لهذا التمثيل الرائع، بأن يحرص علي صلاح الأمر الذي يصلح به جسم المجتمع الإنساني كله، فإذا سلمت العقيدة وصلح الجسد الاجتماعي للأمة كله، وإذا فسدت أو ضاعت هذه العقيدة فسد الجسد الاجتماعي للأمة كلياً.

إن المقصود من العقيدة ليس مجرد ترديد العقيدة الرسمية للدين بشكلها الصحيح فقط بل هي أحداث وإيقاظ الشعور الحقيقي بخشية الله والتقاني في محبته وطاعته والإخلاص له فوق كل شيء آخر حتى يصل الأمر إلى التضحية بكل غال ورخيص في سبيل الله. إن الداعية يبدأ عمله بالضرب على هذا الوتر الحساس حتى يوقظ الشعور السامي في أفراد المجتمع بالحقائق الأبدية، فتبدأ على هذا المستوى يقظة روحية عميقة تأخذ بمجامع النفوس فتؤثر في كل شيء، ويصب إلى كل أنشطة الحياة الإنسانية من الشؤون الفردية إلى الشؤون الدولية .

(5) إعلان الحقيقة

إن الاعتراض على تفسير المودودي، ليس لأنه بالغ في التأكيد على الجانب السياسي في الدين، أو لأنه أدخل السياسة في الدين، فالجميع يعلمون أن السياسة من الدين، ولكن الاعتراض عليه لأنه جعل السياسة أصل الدين ومحور كل تعاليمه، وبذلك يصح أن نطلق على تفسيره (التفسير السياسي للدين).

والمتأثر بهذا التفسير قد صارت له عقلية ترى كل شيء في ضوء السياسة، فأرسال الرسل لمهمة سياسية، والعبادة لإعداد رجال النظام وتربيتهم تربية سياسية، والجهاد لإحداث ثورة سياسية في العالم، وحتى الوقائع التي ليس لها صلة بالسياسة (كالمعراج) تفسر تفسيراً سياسياً. أما المفاهيم الحقيقية للدين فقد اختفت، فلم تعد الرسالة والآخرة والعبادة الحقيقية لها أهمية رئيسية في هذا التفسير، وصار للهدف الإضافي والثانوي المكانة الرئيسية في كل نشاطات المتأثرين بهذا التفسير حتى صارت عندهم الدعوة للعمل بصمت لإنذار الناس من الآخرة وعلى منهج النبوة، مؤامرة، وهكذا تحوّل هذا التفسير مدعاة للانحراف عن فهم ودراسة وتطبيق كتاب الله، والنتيجة العملية الخطيرة لذلك هو حدوث نشاطات ضارة بالدين وإن قامت باسم الدين ... وباسم الجهاد في سبيل الدين، تحت تأثير التفسير الجديد لمفهوم الجهاد.

وعلى سبيل المثال : يقول المودودي في تحديد مفهومه للجهاد :

"إن غاية الجهاد في الإسلام هي هدم بنیان النظم المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها، وهذه المهمة مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام، غير منحصرة في قطر دون قطر بل ما يريده الإسلام أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة إلا أنه لا مندوحة للمسلمين أو (أعضاء الحزب الإسلامي) عن الشروع في مهمتهم بأحداث الانقلاب المنشود والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها، أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل. فالإسلام يتطلب الأرض ولا يقتنع بقطعة أو جزء منها، إنما يتطلب ويستدعي المعمورة كلها، وتحقيقاً لهذه البغية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لأحداث انقلاب عام شامل، ويسمى هذا الكفاح المستمر (الجهاد)".

(الجهاد في سبيل الله)

لقد جعل المودودي مهمة الإسلام الأولى وغاية الجهاد هي إحداث الانقلاب السياسي لإقامة النظام الإسلامي، وأن هذا الانقلاب شامل في كل أنحاء المعمورة، وهذه هي المهمة الأصلية لرسالة الإسلام. وهذا التفسير في غاية الخطورة، فهو لا يتطابق مع القرآن وتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في نفس الوقت لا يتطابق مع الحكمة العملية، ولا مع روح العصر الحديث، فلا مصداقية شرعية أو عقلية أو عصرية لهذا التفسير، وخطورة هذا التفسير أنه قد أوجد في الأذهان هدفاً غير الهدف الأصلي لرسالة الدين، وبذلك ضاع هدف الدعوة الحقيقي، بل إنه قد أحدث نتائج خطيرة في الواقع العملي، إذ صارت كافة الحركات تتجه إلى مبدأ العنف لأحداث الانقلاب السياسي لتطبيق الدين.

وخطأ المنهج الذي سلكه المودودي في تعريف الدين يكمن في اعتباره أن مقتضيات الدين مطلوبة بصورة مطلقة دون مراعاة العلاقة بين الشريعة والمشروع له، وهي نوعية من التحريف في فهم وتفسير وتطبيق الدين، قد وقعت أول مرة في التأريخ الإسلامي، إن هذا التحريف ليس في مقدور كل إنسان لم يتعمق في دراسة القضية أن يدركه، كما أنه لا يمكن فهم هذه القضية بدون دراسة بعض العلوم العصرية يقول وحيد الدين خان : "أعتقد أنه لا تكفي العلوم الشرعية لتعيين خطأ المودودي، بل لا بد من العلوم العصرية الحديثة معها كالماركسية وعلم النفس الحديث، تساعدنا الأولى على معرفة نوعية الخطأ، والثاني على تعيين درجة الخطأ، الماركسية تخبرك إذا ما تحولت الحقيقة الجزئية إلى الفلسفة الكاملة أو تحول أمر الدعوة إلى مشكلة تفسير ماذا يحدث ؟ وتدرك بعلم النفس كم من أفكار تنمو وتتربى تحت الشعور الإنساني ثم تظهر فيما بعد كواقعة في حياته بدن أن يشعر بها".

(خطأ في التفسير)

إن الماركسية كهيكلا أو تركيب لا كفكر أو مضمون هو القالب الذي وضعه المودودي لتفسير الدين مع الفارق أن القالب الماركسي يجعل للاقتصاد الدرجة الرئيسية، ويعتبره الرابطة الكلية لكافة جوانب النظرية الماركسية، بينما المودودي يجعل السياسة هي الرابطة الكلية لجوانب النظرية. وإذا كانت الماركسية تعين نوعية الانحراف والخطأ، فإن التحليل النفسي يكشف منبع التأثير اللاشعوري للإنسان عندما يتأثر بعصره وبيئته، ويخرج في صورة واقعة شعورية في فهمه وتفسيره للدين.

لقد كان (أبو الأعلى المودودي) يعيش في مناخ فكري متشبع بالفلسفة السياسية ضد نظم الإقطاع والاستعمار، تلك الأفكار التي راجت وانتشرت في القرن التاسع عشر، وتحت تأثير مثل هذه الأفكار، وفي ظروف كانت السيطرة فيها للاستعمار الإنجليزي، بعد أن فقد المسلمون سيطرتهم السياسية في شبه القارة الهندية أخذ هذا التأثير الوقتي يتحوّل عنده إلى فلسفة كلية فرضها على الدين الإلهي وجعلها دستوراً مطلقاً للجماعة التي أسسها في الهند، وانتشرت هذه الفلسفة في الوطن العربي خصوصاً بعد أن تبناها (سيد قطب) ونتيجة عدم الوعي بخطورة هذا التفسير تلقاه كثير من العلماء والمثقفين كأحسن ما يعبر عن توجهاتهم العاطفية دون أن يتعمقوا في دراسة هذا التفسير في ضوء القرآن والسنة وشروح المفسرين السابقين، أو يدركوا تأثيره الخطير على مستقبل الدين الإلهي، وكان يقتضي أن يتنبهوا إلى أن البرنامج السياسي في الإسلام ليس قضية العقيدة في حقيقته، بل هو رهن الظروف والأحوال المحيطة بنا في وقت ما أو مكان ما، وأن الظروف الخارجية لا العقيدة هي التي تحدد نوعية واجبا السياسي بما في ذلك تنفيذ النظم الإسلامية. ولكن هذا التفسير لم يقدر هذه الحقيقة الهامة، وجعل مهمة إقامة النظام السياسي الإسلامي في درجة العقيدة، بل جوهر العقيدة وركنها الذي يقوم عليه الدين بأسره. فإذا سلمنا بهذا التفسير صار الواجب الأول هو البدء بالكفاح السياسي لإقامة الحكومة الإسلامية، دون مراعاة الفرق بين ما هو مطلوب بصورة مستقلة ومطلقة كعقيدة التوحيد والإخلاص في العبادة، وبين ما هو مطلوب بالنظر إلى الظروف الخارجية، وهذا ما ينطبق على الرسالة أو المهمة السياسية في الدين، فهي مقتضيات الدين وليست من أصوله أو أركانه، ولا يعني هذا أنه لا أهمية لها، بل هي ذات أهمية بالنسبة لأحوال خارجية تعين أهميتها، ولا تكون مطلوبة بصورة مطلقة كالصلاة أو علاقة العبادة المباشرة كالدعاء والإخلاص والخضوع والخشية والمحبة والرجاء، وكذلك الأحكام الفردية وسائر ما يكون به المرء مسلماً، ولهذا كان أمر الله بإقامة الدين المتفق عليه بين الرسل وعدم التفرق فيه :

(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)

(الشورى : 13)

لأن الدين تتعلق به نجاة الإنسان كفرد يوم القيامة، ولا يعني هنا أن أجزاء الدين الأخرى غير مطلوبة، ولكن التفسير السياسي يجعلها مطلوبة بصورة مطلقة، وهو الذي دفع في النهاية إلى القول بأنها هي العقيدة نفسها، وأنها مناط الكفر والإيمان، وأصل

دعوة الرسل، وهدف الجهاد الإسلامي، حتى أن المودودي زعم أن هدف الإسلام من **الجهاد** : "الانقلاب السياسي" وطبق سيد قطب هذا التفسير على الواقع المعاصر فحكم عليه بالجاهلية والشرك ودعا إلى اعتزال ما أسماه بمعابد الجاهلية (المساجد).

ونلاحظ هنا كيف يقود التفسير الخطأ إلى العمل الخطأ، كما نجد أن كثيراً من النشء الجديد قد تأثر بهذه التفسيرات في غياب التوجيه، وعلى سبيل المثال ذكر أحد المؤلفين المعروفين وهو (يوسف القرضاوي) أنه تلقى رسالة باسم مجموعة من الشباب الدارسين بجامعة الأزهر تقول : "س" : سبق أن بعثت إلي فضيلتكم برسالة باسمي واسم مجموعة من الشباب المسلم الغيور على دينه، والذي ربطت بينهم العقيدة الإسلامية، رغم اختلاف أوطانهم ما بين المحيط والمحيط .

وقد طلبنا من فضيلتكم الرد العاجل والجواب الشافي عن السؤال الذي بلبل فكر فئة منا، وكاد يمزق وحدتنا، نظراً لتعصب كل فريق منا لرأيه.

والسؤال – كما أشرت لفضيلتكم في الرسالة السابقة – يتعلق بأمر في غاية من الخطورة وهو الصلاة في مساجد المسلمين، فقد وجد من المتطرفين الذين يرفضون الصلاة في هذه المساجد، مصرين على اعتزالها، والاكتفاء بالصلاة في البيوت، واعتبار ذلك جزءاً من مقاطعة المجتمع الجاهلي بكل مؤسساته، وإن اتخذت صبغة دينية.

ويستند هؤلاء الأخوة في ذلك إلى ما قرؤوه في "الظلال" عند تفسير الآية (87) في سورة يونس، وفيها يقول الله تعالى :
(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87))

(يونس: 87)

فقد جاء في تفسيرها ما نصه : "هذه التجربة التي يعرضها الله على العصابة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت وفسد الناس، وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون في تلك الفترة، وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

1- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها – ما أمكن ذلك – وتجمع العصابة المؤمنة الخيرة القطيعة على نفسها لتطهرها وتزكّيها، وتدرّبها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها .

2- اعتزال معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصابة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور".

ومن إحياء هذه العبارات اتخذ هؤلاء الأخوة قرارهم، وجعلوا بيوتهم قبلة لهم، مقاطعين المساجد والجوامع التي يؤمها سائر المسلمين.

والآن قد رضي الجميع بالاحتكام إليك في هذه القضية، حيث رفضوا رأي أي عالم هنا، وأعلنوا أن ما تفتي به سيقبلونه، فأصبح لزاماً عليك شرعاً ألا تدعنا في حيرة من أمرنا، وتنازع فيما بيننا، وأن ترد علينا بما ينير طريقنا، قبل أن يتزايد الخطر ويتطير الشرر، وقد رضي حكمك المعتدلون والمغالون لثقتهم بعلمك ودينك، وحسن فهمك للإسلام وللحياة معاً، وتحريك الحق فيما تكتب ... نحسبك كذلك، والله حسيبك، ولا نركي على الله أحداً ...

وإنّا لفي انتظار هذا الجواب على أحر من الجمر. وفقكم الله ونفع بكم :

ولقد أجاب المؤلف : "وهذا التفسير أو الاستنتاج لمثل هذا الحكم الخطير من الآية الكريمة خطأ ظاهر ولا يثبت أمام التمهيص والنقد العلمي الهادئ السليم..."

وبعد أن أورد المؤلف الأدلة الكافية على بطلان هذا التفسير ذكر أخيراً رداً على الرسالة السابقة : "وأخيراً أحسبك لا تجهل أن هذا الموضوع فرع صغير من أصل كبير، بل هو النظرة إلى جمهور المسلمين في بلاد الإسلام وحكمنا عليهم : هل هم كفار جاهليون أم مسلمون متفاوتون ؟ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ؟

فمن كفر المسلمين لم ير جواز الصلاة في مساجدهم، ومن أبقاهم على أصل الإسلام وإن عصوا وانحرفوا – كما هو مذهب أهل السنة والجماعة – لم ير أفضل من الصلاة في المساجد خلف كل برّ وفاجر ...".

(هدي الإسلام وفتاوي معاصرة ص : 87 – 95)

ولقد ذكر د. يوسف القرضاوي عبارة وردت على لسان سيد قطب تفيد أنه كان قد عرف أن هذا التفسير يمثل تغييراً في أصول الدين. فقال : "وسيد قطب قد غير من مواقفه الفكرية خلال مراحل حياته الحافلة وانتقل من مجرد أديب ناقد مبهور ببلاغة القرآن، (مرحلة التصوير الفني) ومشاهد القيامة في القرآن إلى كاتب إسلامي يدعو إلى عدالة الإسلام ونظامه للحياة (مرحلة العدالة الاجتماعية والسلام العالمي في الإسلام) ثم إلى داعية حركي له أفكاره الخاصة في منهج التغيير والنظرة إلى المجتمع، والدعوة إلى العقيدة بدل الدعوة إلى النظام (مرحلة المعالم والطبعة الثانية للضلال) وقد ذكر هو ذلك عن نفسه لبعض تلاميذه، فقال له أحدهم : إذن أنت لك مذهبان : قديم وجديد كالشافعي، فقال له : نعم ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول !!

لقد وضع القرضاوي إشارة تعجب فقط (!!) وأشار في الهامش : "ذكر ذلك د. محمد المهدي البديري في مقال له بمجلة الدعوة نقلاً عن بعض ثقات تلاميذه داخل المعتقل" وذكر القرضاوي أنه من يدري لعل الباحث الناقد يجد أن مذهب القديم – في بعض القضايا – على الأقل – أدنى إلى الصواب من مذهب الجديد".

(أنظر : أين الخلل – ص 36 – مكتبة الجديد . تونس 1988)

ولعل المودودي وسيد قطب ممن يتحملان مسؤولية كبيرة في ظهور وروج هذا التفسير وما ترتب عليه من نتائج وعواقب، ويكفي أن تتحول كل جهود الأجيال الجديدة للعمل في الميدان السياسي القاحل، وفي مثل هذه الظروف لم تظهر أية محاولة نقدية جادة ومتكاملة لهذا الانحراف في الوطن العربي والعالم الإسلامي باستثناء الجهود الرائدة والعميقة للداعية والمفكر الإسلامي وحيد الدين خان الذي كان – في السابق – من أعضاء الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي في الهند، بل كان أحد العناصر الفعالة في هذه الجماعة، وكان قد انتبه وحيد الدين في فترة مبكرة إلى خطأ التفسير السياسي للدين، وعدم تطابقه مع القرآن، وقد حاول إصلاح خطأ هذا التفسير من داخل الجماعة، ولما عجز عن ذلك قدم استقالته (1962) أي بعد خمس عشرة سنة من العمل فيها، ثم نشر كتابه (التفسير السياسي للدين) الذي أبدى فيه الأسباب الفكرية والعملية التي جعلته ينفصل عن هذه الجماعة، وهذا الكتاب وما يتبعه من كتب : (حكمة الدين) (الإسلام) وضحت بجلاء تهافت التفسير السياسي وتعارضه مع فهم السلف أمّا نقده فيقوم على التحليل العلمي المحض.

ومن خلال المعلومات الخاصة التي أتيحت لي عرفت عمق المعاناة والمكابدة التي واجهها هذا الرجل من المؤسسات الدينية ذات النفوذ والسيطرة في شبه القارة الهندية، عندما لم تتحمل الحقيقة القاسية التي أعلنها وبشجاعة نادرة، وهي الحقيقة التي تهمنا هنا بالدرجة الأولى، فهي حقيقة تتعلق بمستقبل دين الله في الأرض، وكان إعلانها في ذلك الحين بعد أن استنفد كل الوسائل الممكنة مع الجماعة الإسلامية لتصحيح الانحراف الذي حدث في تفسير الدين في مؤلفات المودودي عندما قَدّم الدين في هيكل فكري غير هيكله الفكري الأصلي (الإلهي).

لقد نظر المودودي إلى الدين على أنه نظام سياسي، وأنّ "الدين هو الحكومة"، وأنّ "الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله عليهم السلام في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلامية".

(تجديد الدين وإحياءه ص : 41)

وكان من جراء هذه النظرة التفسيرية الجديدة للدين أن صار الهدف الأصلي للحركة الإسلامية التي تأثرت بهذا التفسير هو تغيير النظم السياسية في بلدانها. والحقيقة أن هذا التفسير السياسي الخطير حوّل الدين إلى برنامج سياسي يمثل المعارضة للنظام القائم سواء أكان معادياً للإسلام أم غير معادٍ له، والنتيجة العملية هي حدوث الحرب الأهلية وظهور صعوبات عملية أمام الدعاة الذين يستهدفون نشر الإسلام والعمل الإسلامي الإيجابي في بلدانهم، أو كما عبّر وحيد الدين خان تحت عنوان (عودة الفتنة) : "إنّ الخطر الفاحش الذي جاء نتيجة جعل الإسلام سياسة هو أنّ الفتنة التي أنهاها النبي وأصحابه بعد توضيحات بالغة، قد عادت من جديد في التاريخ الإسلامي".

(الدعوة الإسلامية)

لقد حاول وحيد الدين خان محاولة مستميتة من أجل تقويم اعوجاج هذا التفسير من داخل الجماعة الإسلامية، ويظهر ذلك بوضوح من كتابه (التفسير السياسي للدين)، الذي يروي فيه القصة الكاملة لفصول الصراع الفكري الذي خاضه – من أجل تصحيح هذا الانحراف – مع رؤساء الجماعة الإسلامية، وعلى رأسهم المؤسس (أبو الأعلى المودودي). فيروي لنا بداية اكتشافه لخطأ التفسير السياسي : "لقد نشأت في ذهني بعض الاعتراضات في كانون الأول سنة 1961 م، سجلت أفكارها وأرسلتها إلى الأستاذ المودودي. وإذا علمنا أنه حامل لواء الخلافة (العادلة) فمن البديهي أن يكون رد فعله

على انتقاداتي على هذا النحو كأن يقول : "هذا من حقه وهو دليل على أن ضميره حي". وكان عليه أن يشجني ويشكرني على هذا، ولكن ماذا حدث؟! هي مجموعة رسائل مكتوبة في كتابي (خطأ في التفسير) إذ تابعت معه المراسلة مدة سنتين من أراد الاطلاع عليها فليراجعها في الكتاب، إن الأستاذ المودودي لم يردّ على كلامي مطلقاً، ولكنه نهج نهجاً يعدّه من خصائص عهد الملوكية (المستبدّة) لا أدري لماذا لم يسع الأستاذ إلى تقديره وبعث الطمأنينة في نفسي؟ وهذا نص كلامه : "إنّ دراستك ناقصة جداً، وبلية على بلية، إنك تتكلم من مقام عال، وإنّي لا أرد على من تزّعم هذا الزعم مع قلة علمه". (خطأ في التفسير ص : 164)

".... إنك تجاوزت الحد الذي يفيد معه التفهيم"

(نفس المصدر ص : 165)

"لقد داخلك الزعم والادعاء الشديدان، وإنني لأشك هل بقيت فيك أهلية محاسبة النفس أم لا"

(نفس المصدر ص 168)

"قد بلغت مبلغاً عالياً وبعيداً، فالحوار معك غير ممكن، وبدون جدوى"

(نفس المصدر ص : 183)

هكذا، لم يرد على كلامي طوال فترة المراسلة، وحين ألححت عليه كثيراً رد عليّ كتابياً ما نصه : "أنشر أفكارك، إن قائمة ناقدٍ طويلة، لو أضفت اسمك بينهم فلا ضير. يرى الأستاذ أنّ من حقه أن ينتقد جميع مجددي الأمة ومصلحيها بدون أي شرط، وله أن يضع خطوطاً على أغلاط الصحابة، وأعظم من هذا كله أنه يحاسب خليفة راشداً، ولكنه إذا انتقد فإنّ ناقده يستحق العقاب الذي نسبه إلى الملوك (المستبدّين) مع الفارق أن الملوكية تعذب بالسوط والسجن والسيف لما في يدها من خيار وقوة، والأستاذ (المودودي) لا يستطيع إلا بقلم". ومن الجدير هنا أن أوضح أنني لا أعدّ نوعية الخطأ في هذه المؤلفات، قد ارتكبها — عمداً — للتحريف في الدين، بل ذلك قد ظهر فيها بطريق لا شعوري، إذ أنّ سيطرة فكرة معينة تؤدي بصاحبها إلى التفكير بأسلوب خاص، بدافع خدمة الدين وليس بدافع إفساده أو تحريفه. إنني أظن أن الأستاذ المودودي بريء إلى هذا الحدّ، ولكن حين لفت انتباهه إلى ما بدر منه، كان عليه أن يراجع الأمر ويفكر فيه، ولا يغض الطرف عن الانتقاد الموجّه إليه، ظاناً أنّ ما خرج من فيه أو كتبه بقلمه هو الحق الذي لا تغيير فيه ولا تبديل. فليس الخطأ ما بدر من الإنسان ولكن الخطأ التماذي

فيه بعد المعرفة والاطلاع. واعتقد أن الاعتراف بالخطأ في هذه الحالة ليس أمراً عادياً، بل فيه أشياء كثيرة خفية، لأجل ذلك فإنه قبل طباعتي للكتاب طلبت من مسؤولي الجماعة الإسلامية أمراً بسيطاً جداً، لو يقبلونه فإننا سننهي هذا الخلاف لمصلحة الدعوة، وإن كانت المشكلة باقية من الناحية الأصولية.

لقد كتبت في كتابي اقتراحين، أحدهما : يتعلق بالأستاذ المودودي والثاني : بالجماعة الإسلامية. وخلاصة الاقتراح الذي يتعلق بالأستاذ : أن يعلن الأستاذ أنّ ما قام به من تصوير للدين هو ليس تفسيراً مطلقاً للدين، بل هو تأكيد على بعض النواحي والأجزاء الدينية مراعاة للظروف المؤقتة حتى نجد سنداً من قبل المؤلف ونتمكن بذلك من تأويل مؤلفاته في ضوء ذلك القرار.

(خطأ في التفسير ص : 197)

أما الاقتراح الخاص بالجماعة : فهو أن تعترف الجماعة في دستورها بأن مؤلفات المودودي ليست شرحاً مطلقاً للجماعة الإسلامية.

(نفس المصدر ص : 130)

وبعد ذلك كان من البديهي أن تتغير مكانة مؤلفات الأستاذ المودودي، ولا يبقى لها الاعتبار الأساسي، بل تبقى إضافية فحسب، فحين تستخدم هذه الكتب فإنها تستخدم من أجل فائدتها كغيرها من الكتب التي تستخدم فيها فوائد، ولن لها تبقى أهمية للجماعة الإسلامية – على المستوى الفكري – كدستور ومستند قانوني.

(نفس المصدر ص : 137)

وقد قدمت هذين الاقتراحين في كتابي المذكور قبل طباعته إلى المسؤولين والحقبة أن الاقتراحين لا يعتبران شيئاً في جنب ما هو مطلوب ولكن يا للأسف ! لم يقبلوا هذا الأمر البسيط إما لشدة تعصبهم أو هو التعتن وقلة التدبر والحكمة.

(نفس المصدر السابق)

تعريف

ولد وحيد خان سنة 1925 في مدينة أعظم جره بالهند، وتعلم في جامعة الإصلاح العربية الإسلامية ثم توجه إلى الدراسة باللغة الإنجليزية، وظل وحيد الدين يقدم حصيلة فكرة بعد دراسات عميقة. وفي البدء انتظم في سلك لجنة التأليف التابعة للجماعة

الإسلامية بالهند وعمل سنوات معدودة، ولأسباب فكرية انفصل عنها ثم أمضى ثلاث سنوات مكباً على التأليف في المجمع الإسلامي العلمي التابع لندوة العلماء ولكناؤ ثم شغل رئيس تحرير الجمعية الأسبوعية في دلهي (1967) لمدة سبع سنوات حتى أغلقت المجلة من قبل السلطات الهندية، وفي أكتوبر سنة (1976) أصدر لأول مرة – ومستقلاً عن كافة الهيئات – مجلة (الرسالة)، ودأبت هذه المجلة الشهرية على الصدور حتى الآن، وقد نالت حظاً كبيراً من النجاح والقبول، كما ألف الأستاذ وحيد الدين عدة مؤلفات هامة، نذكر منها على الخصوص : (الإسلام يتحدى) (الدين في مواجهة العلم) (حكمة الدين) (تجديد الدين) (الإسلام والعصر الحديث) (قضية البعث الإسلامي) (الإنسان القرآني) (الإسلام) وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى العربية، ومن المؤلفات الهامة التي لم تترجم له: (محمد رسول الغلبة) (ظهور الإسلام) (الله أكبر) بالإضافة إلى تفسيره القرآن الكريم (تذكير القرآن) إلى غير ذلك من المؤلفات التي تربو على خمسين كتاباً، وآلاف المقالات المنشورة وغير المنشورة.

والميزة التي يمتاز بها وحيد الدين من بين أقرانه من مفكري العصر إيمانه القائل على قراءة الكتب العلمية والفكرية باللغة الإنجليزية، ويمكن تقدير سعة إطلاعه وعمق دراسته من خلال مؤلفاته ذات المستوى العلمي الرفيع، والتي تظهر عمق ثقافته الإسلامية وتمكنه من ثقافة العصر.

ونظراً لقوة نفوذ الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وتأثيرها في بعض الأوساط العربية، فلقد أحاطت مؤامرة الصمت الشهير والطعن بوحيد الدين خان، في نفس الوقت الذي فتحت فيه الأبواب أمام شخصيات دينية ذات مستوى سطحي في التفكير، ونالت من الاهتمام والدعاية ما لا يتناسب مع مواهبها الفكرية، والسبب في ذلك – كما هو ظاهر – أن وحيد الدين لا ينتمي إلى أية مؤسسة أو جماعة دينية تقليدية تدشن مكانته الدينية، وتكون سنداً لشهرته ولو كان صاحب موقف وعقل مفكر نادر وموهبة قلمية بارعة ظهرت من خلال مؤلفاته المبكرة، مثل كتابه (الإسلام يتحدى) و (الدين في مواجهة العلم) و (الإسلام والعصر الحديث). إن مثل هذه الكتب القيمة التي ألفها لتعكس بوضوح اتساع ذهنيته ومستوى اطلاعه على فكر العصر ومقدرته الفائقة على الرد على المدارس الغربية للفكر المعاصر بأسلوب علمي تحليلي ليس له مثيل في الفكر الإسلامي المعاصر. فمن هو المفكر أو الكاتب الذي تمكّن أن يطلع بعمق على الفلسفة المعاصرة ويفهم جوهر التحدي الحضاري والمستوى الفكري المعاصر، أو تمكن أن يكتب رداً

على التحديات في المستوى العلمي والعصري، أو قام بعرض تعاليم الإسلام بأسلوب علمي تحليلي إن الأسلوب الذي درج عليه معظم الكتاب هو الأسلوب الإنشائي والعاطفي والأدبي، كما أن هناك كتاباً قد نالوا شهرة واسعة ليس لأن صلاحيتهم ومواهبهم العقلية تؤهلهم لذلك، بل لأنهم ينتمون إلى جماعات دينية تقف وراء شهرتهم والدعاية لهم.

ولكن أهم من ذلك كله أن وحيد الدين يعد المجدد الحقيقي لدين الله في هذا العصر، بل هو المجدد الفريد الذي أظهر عمل النبوة من جديد وهو الدعوة إلى الله، إذ لم يظهر أي مفكر وهب حياته لهذه الرسالة كما فعل وحيد الدين خان، وعندما قامت جهود المصلحين والمفكرين المسلمين المعاصرين على أرض التقليد وردود الفعل فإن وحيد الدين خان قامت جهوده على أساس الاكتشاف لعمل النبوة والسير على منهجها الوضاء، وتقدم مؤلفاته الحل لقضية التجديد في العصر الحديث هذا بصرف النظر عن عدم وعي المسلمين بذلك، والحقيقة التي اكتشفناها من خلال دراسة متواصلة لمؤلفاته أنه المفكر الإسلامي الوحيد الذي درس بعمق قضية العصر الحديث التي يواجهها الإسلام، وعيّن بعمق نوعية الرد على هذه التحديات ووضع منهجية تفكير شرعية وعصرية لإحياء دين الله في الأرض، وبذلك يعد بحق صانع سلم التجديد في العصر الحديث، ويشعر كاتب هذه السطور بالفضل الكبير لهذا المفكر، ليس فقط من خلال النصوص الوافرة المدعمة لقضيته بل أكثر من ذلك هو اكتسابه من خلال مؤلفات وحيد الدين الوجهة الصحيحة للتفكير، وهذه مسألة هامة فلا يمكن أن ينجح العمل إذا افتقد هذا الأمر، ولعل أزمة العمل الإسلامي في جوهرها لا تخرج عن نطاق هذا التحليل، وهو فقدانه الوجهة الصحيحة للتفكير، وأؤكد بكل ثقة وبعد خبرة نظرية وعملية أن مؤلفات وحيد الدين خان تستطيع أن تقدم الحل لهذه الأزمة، وبالتالي تحويل تيار العنف والمواجهة السياسية إلى العمل الإيجابي البناء الداخلي والخارجي.

(6) رسالة الجهاد

"إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف" الحسن البصري.
(تفسير ابن كثير 5 / 308)

ما معنى الجهاد في القرآن ؟

وقبل الجواب على هذا السؤال المثار، نود الإشارة إلى أن الإجابة على هذا السؤال لها صيغتان، صيغة أدبية مجازية واسعة فتشمل مختلف جوانب العمل الصالح. وقد تتسع أكثر فتشمل معظم جوانب الحياة العملية لأهل الدين، مثل السعي من أجل التقدم الحضاري والاجتماعي والاقتصادي ... وما إلى ذلك. أما الصيغة الثانية للإجابة فتقوم على أساس علمي محدد كما هي في معناها الحقيقي في (القرآن) المصدر الأساسي للحقائق الدينية في الإسلام. وصفة الإجابة ذات الصيغة العلمية أنها تقوم على أساس التحليل للمعنى الأصلي بخلاف الصيغة الأدبية التي تضم في توسع كل الأمور التي تضاف للمعنى الحقيقي على سبيل المجاز ... وسمة التعريف العلمي التحديد والوضوح للمعنى وهو أمر في غاية الأهمية لمن يريد إدراك حقائق الدين والعمل بمقتضاها فالذي لا يدرك بوضوح الفارق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قد يندفع للقول بغير علم ويخطئ بالتالي في إصدار أحكامه الفكرية زاعماً أنها من القرآن وهي ليست من القرآن ونحن نعلم أن الله قد شدد كثيراً في مسألة القول عنه بغير علم وجعلها من الكبائر :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(الأعراف : 33)

والملاحظة الأخرى التي نود الإشارة إليها هي ملاحظة الفرق بين المعنى القرآني، والمعنى الاصطلاحي في علم من العلوم الدينية، وهو فرق مهم.

فالتعريف لمعنى الجهاد في علم "الفقه" يتميز - بالدرجة الأولى - بأنه من إنشاء وصنع الفقهاء في ضوء قياسات خاصة، أو بقرائن معينة جعلت للتعريف دلالة متميزة بدرجة ما. ومعلوم أن العلوم الإسلامية تستعمل المعاني الاصطلاحية بدرجات متفاوتة من الاختلاف والتميز وفق التحديدات الفنية المتفق عليها في كل علم من العلوم :

وعلى سبيل المثال نلاحظ الفرق في معنى "السنة" بين المعنى القرآني والمعنى في العلوم الإسلامية ... السنة في "القرآن" بمعنى القانون الإلهي وحكمه المعتاد الذي لا يتبدل بالسنة للوقائع المتشابهة :

(سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

(الفتح : 23)

وهي تعني "لغة" الطريقة محمودة كانت أو مذمومة.

وهي في "إصلاح علماء الأصول" كل ما صدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قول وفعل وتقرير.

وهي في "مصطلح الفقهاء" ما ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من غير افتراض أو وجوب.

وهي عند "المحدثين" ما أثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو سيرة، وهي بهذا المعنى مرادفة للحديث.

وقياساً على ذلك نجد أن تعريف الجهاد بالقتال في الفقه تعريف اصطلاحى اعتمد على قرينة خارجية مستعملة، ولكن لا يعني هذا التعريف أنه قد التزم المعنى الحقيقي في القرآن - كما سيأتي - فالقتال ورد كوسيلة من وسائل الجهاد وهو في المنظور التاريخي العام مجرد قرينة خارجية تظهر وتختفي وفق الأحوال الخاصة، ومن هنا يفقد التعريف الفقهي المعنى الحقيقي الأصلي وهو التعريف العلمي المراد في القرآن، وعلى هذا القياس فإن الجهاد قد يحمل في بعض الأحوال على الدلالة المجازية، وقد يحمل في بعض الأحوال على دلالة اصطلاحية. فلا بد من مراعاة الفرق بين الإجابة ذات الصيغة العلمية المحددة، والإجابة المجازية والاصطلاحية.

تعريف الجهاد

إن المعنى اللغوي وفق المعاجم اللغوية مثل "لسان العرب" : "الجهاد بمعنى بذل الوسع والطاقة".

وعند الجرجاني (ت 816 هـ) في "التعريفات" : "الجهاد هو الدعاء إلى دين الحق" وهو ما يؤيده أحدث معجم علمي تحليلي لألفاظ القرآن الكريم أصدره مجمع اللغة العربية (1981) :

"وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها". (معجم ألفاظ القرآن الكريم ص:114. دار الشروق)

إن المعنى اللغوي للجهاد، بذل الطاقة واستفراغ الوسع، وهو غاية الجهد، ومعناه القرآني وفق التعريف العلمي والتحليلي : "بذل الطاقة واستفراغ الوسع في سبيل تبليغ رسالة القرآن" وهو الذي يسميه الله بالجهاد الكبير:
(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(الفرقان : 52)

الضمير يعود على القرآن وهذه الآية مكية قبل نزول الأمر بقتال المشركين.

والمراد من تبليغ رسالة القرآن توعية الناس بقضية الحياة الآخرة وإقامة الحجة على عباد الله بعد دعوتهم المستمرة للتوحيد الذي هو وسيلة الخلاص والنجاة من عذاب الله يوم القيامة والفوز بالجنة وهذا الجهاد هو المطلوب بصفة خاصة من الرسول وبصفة عامة من الأمة الإسلامية كما ورد ذلك صريحاً في القرآن :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(الحج : 78)

إن الجهاد الحق مطلوب من الرسول لإقامة الشهادة على الأمة الإسلامية كما هو مطلوب تماماً من الأمة الإسلامية لإقامة الشهادة على الناس كافة بأنهم قد أبلغوا رسالة الله في الحياة الدنيا ولئلا يكون أمامهم عذر يوم القيامة.

أما تعريف الجهاد في سبيل الدين بالقتال فهو تعريف كما يشرحه أحد المفكرين المعاصرين بمثابة حذف الجهاد من الدين. ففي هذا التعريف تضع قضية الدين الإلهي الأولى وهي الدعوة إلى التوحيد وإنذار قافلة البشرية من اليوم الآخر.

وهي القضية المطلوبة بصفة مستمرة من أمة خاتم الرسل حتى لا يقول أحد يوم القيامة أنه كان يجهل رسالة الإسلام، فالمسؤولية بلا ريب تقع حينئذ على عاتق المسلمين الذين لم يقوموا بالجهاد من أجل تعريف الناس بحقيقة الرسالة القرآنية. والحقيقة أن الجهاد من أجل هداية الناس لدين التوحيد أعظم مهمة على وجه الأرض ويكفي أن الرسل انتدبهم الله لهذه المهمة بالدرجة الأولى:

(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

(النساء : 165)

بما في ذلك خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم)

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46))

(الأحزاب : 45 - 46)

والملاحظة التالية الهامة هي أن القتال لم يستعمل كأداة مطلقة للجهاد بل وسيلة مقيدة، ومعنى هذا بتعبير آخر أن الجهاد ليس مطلوباً وقتياً بل هو مطلوب بصفة دائمة مستمرة، ولكن القتال ليس مطلوباً بصفة مطلقة لإقامة الدين ونصرته بل هو مطلوب في وقت دون وقت وفي حالة دون حالة.

ولقد حدد القرآن قانون القتال الدفاعي من أجل الدعوة وهو : "المجازاة بالمثل"

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128))

(النحل : 126 - 128)

وفي الآية السابقة يتبين أن الموقف الأمثل هو الصبر وهذا الصبر ليس مجرد موقف سلبي بل هو تخطيط وعمل في ضوء الغاية الأصلية للجهاد، وهو هداية الناس ودعوتهم لدين الله الحق، وهي الغاية التي ينبغي أن لا تضيق حتى في ضوضاء الحرب الدفاعية، وهنا يتضح أيضاً السبيل الأكيد لنزول نصره الله على الأعداء بعد إقامة الحجة واستمرارهم في العدوان على شهداء الحق ولقد كان الموقف الذي واجهه الرسول والصحابه في عدوان أهل الشرك عليهم في موقعة أحد يوضح هذه الحقيقة الضائعة في منهج الدعاة اليوم قال الله تعالى :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128))

(النحل : 125 - 128)

إذن هذه الآيات تضع قواعد المعاملة المطلوبة من قبل الدعاة، ولقد ورد في أسباب نزول الآيات أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابه أقسموا على الانتقام من عدوان قريش الوحشي في موقعة أحد إلا أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآيات يأمر المسلمين بالصبر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينئذ "نصبر ولا نعاقب"

(أنظر تفسير ابن كثير : 4 / 237)

وعندما دخلت جيوش الإسلام مكة منتصرة ولاحت لأول مرة فرصة مواتية للانتقام لدرجة أن هتف زعيم الأنصار سعد بن عباد قائلاً : "اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة" فرد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بل اليوم يوم المرحمة اليوم تعظم الحرمة". وكانت النتيجة العظيمة لمعاملة الرسول الكريم أن دخل الناس في دين الله أفواجا، حتى الذين سمح الرسول بسفك دمائهم أسلم بعضهم مثل عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي سرح وصارا من كبار المجاهدين في سبيل الله.

ويتبين من هذا أن الصبر ليس موقفاً سلبياً بل هو موقف يعتمد على التخطيط وبعد النظر بهدف تحقيق الانتصار الكامل على الأعداء عن طريق الدعوة الإسلامية التي تأتي على بنیان العدو من القواعد، وكما هو معلوم أن نصر المسلمين الذي تحقق في مكة كان بواسطة الدعوة عندما دخل الناس من جميع القبائل العربية في حضيرة الإسلام بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة وبذلك تحطمت قوى الشرك تلقائياً بدخول الرسول مكة يقود عشرة آلاف صحابي، وانتهت مقاومة قريش أمام هذا العدد الهائل الذي تكون بسبب الدعوة.

فالدعوة قوة لا تغلب لأنها تفتح القلوب حين يعجز السيف عن فتحها وهي تشق طريقها في الأجواء السلمية بسرعة هائلة لأنها تخاطب الفطرة، وفي الأجواء القتالية يعلو التعصب والخوف فيمنع الناس من الاستماع إلى الحق فكيف حينئذ يهتدون. ولقد كان عدوان الشرك على الرسول مانعاً لدخول الناس في الإسلام فلما توقف هذا العدوان بدأ الناس يستمعون ويدخلون في دين الله، وتلك نقطة تحول هامة تحول في التاريخ البشري لدرجة أنها فتحت عهداً جديداً، وأصبحت في منظور المستقبل آية للمؤمنين :

(وَلَتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)

(الفتح : 20)

إن هذا الفتح – صلح الحديبية – كان لا نظير له في التأريخ وهو نهاية تاريخ وبداية تاريخ، وهو إطلالة على عصر سوف يسود فيه الإسلام العالم بأسره بدون قتال، بل عن طريق الفتح الفكري لا الحربي ...

إن الفتح المبين في مكة إيقاف للقتال الذي أشعله التعصب والجهل على رسالة الإسلام، وبعد جهود مضنية من جهاد الرسول والصحابه رضيت قريش أخيراً بعقد هدنة سلمية مع الرسول لمدة عشر سنوات، وكانت لا تعرف في ذلك الوقت أنها أبرمت معاهدة لإنهاء مقاومتها الظالمة للرسول، بل إن الحمية التي برزت في توقيع المعاهدة جعلتها تظن أنها قد انتصرت على الرسول والصحابه حين أرجعتهم خائبين لم يحققوا ما أرادوه من العمرة، وهي في منظورها القريب العاجل حصلت على فوائد جمة فسوف تمر قوافلها لأول مرة آمنة على مرمى الهدف الإسلامي بدون تهديد.

ولقد كان هذا الصلح – في البداية – مثار إنكار واستغراب واندھاش للصحابه بما فيهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لقد كان أبو بكر الصحابي الوحيد الذي وافق الرسول منذ البداية. إذن لماذا كان هذا الصلح "فتحاً مبيناً" مع وجود هذا الإنكار من الصحابة؟!

إن الله لم يسمّ انتصار المسلمين في أية موقعة حربية "فتحاً مبيناً": لقد سجل الله انتصار المسلمين في بدر الكبرى فقال سبحانه وتعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(آل عمران : 123)

إن الجواب على السؤال يكمن فيه السر الذي لا تزال تجهله القيادات الإسلامية المعاصرة، إن سر الفتح المبين يكمن في الدعوة لا القتال وببساطة ووضوح، فإن الإسلام ينتصر في الميدان الفكري – ميدان الدعوة – بدرجة الفتح المبين، أي أن الدعوة للإسلام هي سر انتصار المسلمين في كل وقت بما يعادل الفتح المبين، هذا هو السر المجهول لدى القيادات الإسلامية التي تبحث عن انتصار الإسلام في ميدان المواجهة السياسية منذ مائتي سنة، ولا زالت كل جهودها وطاقاتها المادية في صحراء السياسة

القاحلة، وتدفع ثمناً باهظاً على كل نشاط في هذا الطريق المسدود. إن غفلة هؤلاء المفكرين المسلمين عن سر الفتح المبين الذي جعله الله آية للمؤمنين وهداية الصراط المستقيم تكمن فيها مأساة التاريخ الإسلامي المعاصر كله.

القتال لإزالة فتنة الشرك

ومن المهم في هذا الخصوص أن نشير إلى النوع الآخر من القتال من أجل الدعوة الإسلامية والذي شرع لضرورة إيجابية مقيد بزوال فتنة الشرك، وهو المقصود في القرآن الكريم :

(وَقُتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)

(الأنفال : 39)

فلقد اتفق المفسرون كابن عباس ومجاهد والحسن وأبو العالية ... وغيرهم (حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقال القرطبي : "أصل الفتنة الامتحان، مأخوذ من فتنة الفضة إذا أدخلتها في النار لتمييز رديئها من جيدها، والفتنة بمعنى الشرك وما تابعه من أذى للمؤمنين"

(القرطبي : 2 / 364)

ولقد كان هذا القتال مقيداً بزوال الاضطهاد على الموحدين من قبل المشركين :

(فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

(البقرة : 193)

ولقد زالت فعلياً فتنة الشرك وبتصريح عبد الله بن عمر عندما دُعِيَ للمشاركة في القتال الذي يدور بين المسلمين بدعوى (وَقُتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) فقال : " لقد قاتلنا مع رسول الله حتى لم تكن فتنة" (رواه البخاري في تفسير سورة البقرة)

وفي رواية أخرى : "قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله وذهب الشرك ولم تكن فتنة"

(تفسير ابن كثير 3 / 317)

ولقد كان الصحابة يفهمون هذه القضية بوضوح، فلقد ورد في صحيح البخاري أنّ سعيداً بن جبير قال : خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً قال : فبادرنا إليه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول :

(وَقَلِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً) فقال : هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك، إنما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقاتل المشركين وكان الدخول في دينهم فتنة وليس كقتالهم على الملك.

وفي رواية أخرى قال عبد الله بن عمر حين دعي للمشاركة في الفتنة وحين تليت عليه الآية، قال : فعلنا ذلك على عهد رسوله (صلى الله عليه وسلم) حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.

(تفسير ابن كثير / مجلد 1 ص 403)

ويتضح من الآثار السابقة أن الوضع قد تغير بعد جهود الرسول والصحابة في القضاء على فتنة الشرك الجارح. وظهر التوحيد على عقيدة الشرك. ومن آثار ذلك زوال المبرر القديم لسيطرة الملوك الطواغيت والأنظمة التي كانت تسيطر باسم الشرك.

ولما انتهى اضطهاد الشرك وفتنته الجارحة دخل الناس في دين الله أفواجا عن طريق الدعوة والتعليم على مدى العصور اللاحقة في كل بقاع المعمورة المعروفة، وأساس انتشاره في كل مكان هو الدعوة السلمية بالدرجة الأولى وعن طريق تعليم القرآن ونشر اللغة العربية وفي هذا يقول السير آرثر كيث – يوضح كيفية دخول مصر للإسلام "وكانت نهاية الإمبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العربية في مصر حين انتصر أقل من خمسة عشر ألف جندي من الجنود العرب بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين، فالفتح العربي لمصر لم يكن بالسيف بل بالقرآن، إذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه وبدؤوا في تعلم اللغة الجديدة أي اللغة العربية، لقد جعل القرآن المصريين يتكلمون العربية".

SIR. ARTHUR KEITH, A NEW THEORY OF HUMAN EVOLUTION. LONDON P303

ولا زالت الدعوة الإسلامية أقوى قوة قاهرة بيد المسلمين، والمقصود الدعوة إلى دين الله الحق بين الشعوب غير المسلمة، إنها قوة مسخرة لقلوب البشر، وهي القوة الجهادية التي فاز بها الإسلام في كل وقت حتى في أحلك عصور التدهور السياسي

والحضاري له. ففي أحيان كثيرة كان الإسلام يستقطب الشعوب للدخول في حضيرته وإعلان ولائها له، وبالتالي تسخير كل إمكانياتها للدفاع عنه، وعلى سبيل المثال يقول توماس آرنولد : "هناك حالتان تاريخيتان كبيرتان، وطيء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغوليين. وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلو كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني "السلطة السياسية" عقيدتهم إلى أفريقيا الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية. وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراکش إلى زنجبار ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة. (الدعوة إلى الإسلام ص : 26)

ويقول نفس المؤلف معلقاً على تاريخ انتشار الإسلام في شرق أفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين : "وليس القول بأن الإسلام يتقدم بقوة السلاح إلا قليل جداً من الحقيقة، بل الأمر على العكس من ذلك، فتقسيم أفريقيا بين السلطات الأوربية، التي انتزعت السيف من أيدي الرؤساء المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم حينذاك قد هيا للدعوة إلى الإسلام أن تصادف النجاح بعد قرون من الإخفاق". (المصدر السابق ص : 400)

إن المطلوب الحقيقي من الأمة الإسلامية وريثة الرسالة الإلهية أن تنهض بكل إخلاص من أجل العمل على دعوة الناس لدين الله وفتح أبواب الرحمة الإلهية التي أرسل بها الرسول الخاتم : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء : 107)

وحين تنهض من أجل هذه المهمة العظيمة لن يلبث أن يتغير التاريخ مرة أخرى وتظهر من جديد آية الله بالفتح لهذه الأمة وهو ما تبحث عنه منذ فترة قديمة مضيعة جهودها وإمكانياتها في صحراء السياسة القاحلة.

ذلك لأن غاية الدعوة الإسلامية هي هداية الناس إلى ربهم وإعلامهم بعقيدة التوحيد التي يتم بها الفوز بالنجاة من عذاب الله يوم القيامة وليس هناك طريق للفتح والنصر أمام أتباع الرسول الخاتم إلا طريق الدعوة وهو الجهاد الحقيقي الذي انتدب الله هذه الأمة له، ويهدي إليه من يشاء من عباده المخلصين.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(العنكبوت : 69)

ملاحظة : ليس في موضوعنا السابق الحديث عن القتال باسم الدفاع عن أمن الدولة وحدودها، وضد الاعتداءات الخارجية عليها التي هي حق طبيعي لها. ولكن الموضوع يتناول موضوع القتال وصلته بقضية الدعوة الإلهية فقط وهي القضية التي تتعلق به كوسيلة لنشر الدين. (أنظر مقدمة الكتاب)

(7) الشريعة والعدل

(أ) العدل :

إن غاية الشريعة العدل (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (الشورى : 15)
(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(النحل : 90)

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ)

(النساء : 58)

وَأَنَّ العدل مطلوب حتى في الحالات التي تجد فيها عاطفته عقبة أمام تحقيقه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(المائدة : 8)

"وأمر الناس إنما تستقيم بالعدل الذي هو نظام كل شيء حتى أن الله يقيم الدولة
العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة ولو كانت مسلمة".

(ابن تيمية رسالة الأمر بالمعروف ص : 40)

والشريعة هي الميزان الإلهي الناطق بالعدل لهذا أمر الله بالتحاكم إليها والرضى
بحكمها : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(النساء : 59)

(ب) المساواة :

من القواعد الأصولية التشريعية هو اعتبار القاعدة الشرعية التي تنص وتؤكد على
نفاذ الشريعة الإسلامية بدون اعتبار للفوارق الطبقية أو الاجتماعية والعرقية، وهذه هي
سمة من سمات العدل في مفهوم الشريعة الذي ليس له نظير في التشريعات البشرية.
ونأخذ مثلاً على ذلك القوانين الرومانية التي لا تسوى بين الرومان وغير الرومان الذين
تضعهم في قائمة الحيوانات المتوحشة وتطلق عليهم البرابرة. وهذا المنطق العجيب نجد

له جذوراً في الجماعات البشرية كافة: "إن الجماعات البشرية كلها تكاد تتفق في عقيدة كل منها أن سائر الجماعات أخط منها". ولهذا لم تكن شعائرهم إلا تعبيراً عن هذا التمييز والاحتقار لغيرهم.

(ول ديورانت : قصة الحضارة 1 / 179)

ولقد ذمّ القرآن اليهود لأنهم حرفوا الشريعة الإلهية وجعلوها في هذا المستوى من التعصب :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76))

(آل عمران : 75 – 76)

ولقد أكد الإسلام في نفس الوقت أن أي وضع اجتماعي خاص لا يقف أمام تنفيذ الشريعة ولقد حدث أن سرقت شريفة من قريش في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكان موقف الرسول حازماً في تنفيذ القصاص.

"إن قريشاً أهمهم أمر المخزومية التي سرقت، فقالوا : من يكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلمه أسامة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد : وأيم ! الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

(البخاري / كتاب الأنبياء)

ولقد وقع في المدينة حادث سرقة وكان السارق مسلماً واستطاع بعض أقارب السارق أن يثيروا الشبهة حول يهودي ببعض القرائن حتى همّ النبي أن يخاصم عن المسلم اعتقاده ببراءته فنزل الوحي الإلهي يوضح الخونة :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)

(النساء : 105)

فالإسلام لا يرى أي تمييز في الشريعة وهذا المنهج الذي يقوم على العدل هو قوام الاستقرار والأمن في المجتمعات والانحراف عنه لا يؤدي إلا للخراب وانهيار القيم وهو من أتباع السنن التي نهى عن اتباعها الإسلام.

(ج) العقاب

إن أساس التشريع يقوم على القاعدة التالية : "إن الإنسان يتمتع بإرادة مستقلة وبالتالي فهو مسؤول عن أفعاله وأقواله ومسؤولية تامة والعقاب هو الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع ولما كان الغرض من العقوبة هو إصلاح الأفراد وحماية الجماعة وصيانة نظامها فقد وجب أن تقوم العقوبة على أصول تحقق هذا الغرض لتؤدي العقوبة وظيفتها كما ينبغي، ولقد دلت التجارب عموماً أنّ العقوبات الإسلامية تؤدي إلى نتائج أكيدة في كفاح الجريمة وأنّ أي نظام وضعي يعجز عن الوصول إلى بعض النتائج التي يصل إليها نظام الشريعة الجنائي ولعل السر في نجاح الشريعة أن عقوباتها وضعت على أساس طبيعة الإنسان ففي طبيعة الإنسان أن يخشى ويرجو وهو لا يأتي أي عمل إلا بقدر ما ينتظر من منفعه ولا ينتهي من عمل إلا بقدر ما يخشى من مضاره، ولقد استعملت الشريعة طبيعة الإنسان فوضعت على أساسها عقوبة الجرائم عامة وعقوبات جرائم الحدود والقصاص خاصة.

ولهذا شرع القصاص مقررأ في الأديان السماوية السابقة :

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

(المائدة : 45)

ذلك لأن في حكمة القصاص شفاء لصدر المجني عليه وأوليائه وفيه حياة للمجتمع برده لمن تسول لهم أنفسهم ارتكاب الجريمة لقد أشار أحد المشرعين الغربيين إلى أهمية القصاص فقال : إذا أخذ المقتن عقوبة من طبيعة الجريمة فقد انتصرت العدالة".

(بنّام : أصول الشرائع 1 / 233)

ذلك لأن أحسن العقاب أن يكون من نفس الجنس للجريمة التي اقترفت فلو عوقب على الاعتداء مثلاً بغرامة مالية لكانت العقوبة بالنسبة لغني عبثاً.

(أنظر التشريع الجنائي في الإسلام 1 / 715)

خصائص الأمر التشريعي

إن الاستقامة في تطبيق التشريع مطلوبة، والاستقامة في التطبيق، تقوم على الاستقامة في التشريع، ولو أنّ الشرع الإلهي قد اكتمل :
(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

(المائدة : 3)

إلا أن العلاقة بين المشرع والمشرع له، ينبغي أن تكون علاقة صحيحة تراعي النسب المختلفة بين التشريعات. وتراعي الفطرة الإنسانية وفي الحديث الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه بيان لذلك : "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ... فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة من أموالهم وتردد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقى كرائم أموال الناس".

(البخاري / كتاب الزكاة)

هذا من جهة المشرع أو الداعية أما من جهة المشرّع له أو المدعو فعليه الالتزام بالشرعية بعد المعرفة :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(الجاثية : 18)

ونجد للشرعية الإسلامية خصائصها التشريعية والتربوية التي تتجلى فيها الحكمة والاستقامة والعدل، وفي السطور القادمة سوف نشير إلى أهم هذه الخصائص :

أ - رفع الحرج

إنّ أحد المبادئ المهمة التي قرّرها الخالق على الإنسان مبدأ رفع الحرج :

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (الحج : 76)

ورفع الحرج بمعنى عدم تكليف الإنسان بما لا تقدر عليه فطرته وأنّ التكليف بحسب الوسع : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(البقرة : 286)

ولهذا السبب نجد أن الله ينهي عن الإكثار من الأسئلة والبحث عن شريعة أمر من الأمور لم ينزل فيه الله نص بيان في القرآن :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

(المائدة : 101)

ولقد أكد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الله عندما سكت عن أشياء رحمة بنا فلا يليق بنا حينئذ البحث عنها، وكيفينا الله ما شرع وأن ننفذ منه ما نستطيع، عن ثعلبة الخشني قال رسول الله : "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها".

(رواه النووي)

ومن أعظم الذنوب عند الله قوله (صلى الله عليه وسلم) "من أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته".

(مختصر تفسير ابن كثير الصابوني 1 / 105)

وقال : "ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم".

(رواه ابن عبد البر / جامع بيان العلم 2 / 172)

ولقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) مراراً إلى عنصر الهلاك في الأمم السابقة :

"بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم : "فإذا أمرتكم بشيء فاتوه وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم" (مسلم / فرض الحج)

فالشريعة الإلهية قوامها أوامر محددة وبسيطة جاءت على مقتضى الوسع الإرادي

للإنسان (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(البقرة : 286)

(ب) التدرج

إن التدرج في نزول تعاليم الأحكام الشرعية هو الأسلوب الإلهي الذي سلكته الدعوة الإسلامية، وهو الأسوة المطلوبة في تطبيق التعاليم الإسلامية وبسبب هذا الأسلوب قسم

العلماء القرآن إلى مكى ومدني بحسب نزوله، وهذا التقسيم كما نعلم يبين الفارق الأساسي في أسلوب تربية القرآن وهو مراعاة الأحوال التي يكون فيها الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، وهذه ميزة مهمة من ميزات التربية القرآنية، لا ينبغي إهمالها في كل تربية معنية بتطبيق وتعليم القرآن الكريم، ويصور هذه الحقيقة الحديث الذي رواه عبد الله بن يوسف عن مالك عن السيدة عائشة "إنما نزل أول ما نزل من سوره (القرآن) من المفصل فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد (ﷺ) وإني لجارية ألعب (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) (القمر : 46) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

(صحيح البخاري / باب تأليف القرآن)

فهذا الخبر ينبئ أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم يشرعها دفعة واحدة في قانون واحد، وإنما شرعت متفرقة في مدى اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر، والتدرج في أنواع التشريعات ظاهر من أن المسلمين لم يكلفوا في أول عهدهم بالإسلام بما يشق عليهم فعله أو ما يشق عليهم تركه بل يسلك بهم سبل التدرج وأخذوا بالرفق وهذا هو الأسلوب الذي يوافق الفطرة الإنسانية.

(أنظر عبد الوهاب خلاف : تاريخ التشريع الإسلامي ص : 18 - 19)

الفرق

أما مسألة تطبيق الشريعة (رغم حيوية وأهمية هذا الهدف) فليس هو الهدف الأصلي الذي من أجله أرسل الله الرسل، ولا يوجد أي دليل من القرآن أو من السنة يبين بصرامة أن الله أرسل الرسل على أنها مهمتهم الأصلية، إنما يأتي هذا الهدف ضمن مقتضيات الدين، وهذا يعني أنه ليس مطلوباً بصورة مطلقة ونهائية كما يفترض التفسير النظامي للدين. وهو مطلوب بالنسبة للأصل وليس مطلوباً بنفسه، ولهذا فهو يعتمد على الظروف الخارجية المحيطة بالمؤمنين، وبالنظر إلى هذه الظروف وحدها نستطيع أن نعين وجوب تطبيق الشريعة أو عدم تطبيقها، ولا يعني هذا عدم أهمية تطبيق الشريعة أو التخلي عن هذا الهدف بصورة مطلقة، إنما المقصود مراعاة الفرق بين الفريضة الأصلية المطلقة والتي يتعين بأدائها خلاص الإنسان ونجاته يوم القيامة والتي لا يجوز

تأجيلها أو تأخيرها لأنها مناط الاختبار البشري وبين الفريضة الفرعية للدين التي تبعاً لقيام الفريضة الأصلية وهي ثانوية دائماً، ولا يمكن أن نطالب بها إلا من كان له قدره واستطاعة على أدائها، ويجب أن ننبه أن هذه الاستطاعة مسألة غير مطلوبة كهدف بل تأتي بصورة مطلقة، والفريضة الإضافية تنفذ الشريعة في الحدود، إنَّ الفريضة الثانية تعتمد على الأحوال الخارجية للمجتمع المسلم وفي حالة توفر حرية الاختيار للمجتمع المسلم فقط، ولا يمكن المطالبة بها إلا من توفرت لهم هذه الظروف وفي نفس الوقت لا يعني هذا أنهم عليهم أن يخلقوا هذه الظروف أو نلزمهم بالسعي لذلك ونقرر أن هذا السعي واجب وجوباً لا تسامح فيه ولا تبرأ ذمتنا أمام الله إلا بتحقيقه أو السعي إلى تحقيقه. إن هذا الفهم والتفسير غير صحيح مطلقاً ويتعارض مع تعاليم الدين ومن يصّر على هذا الفهم فهو كمن يرى أن فريضة الزكاة مطلوبة بصورة مطلقة وليس بالنسبة لأحوال المكلفين، فمن المعروف أن فريضة الزكاة واجبة فقط على من يملكون النصاب المالي وحان الوقت لتأدية الزكاة، وليس ممن لا يمتلكون هذا النصاب بعد، ولا يمكن لنا أن نلزم الناس أو نكلفهم بالسعي لتحصيل المال لتأدية الزكاة وأن نعتبر هذا السعي فريضة مطلقة لا نبرأ من أدائها أمام الله. وهذا معنى خطأ الذين ينظرون إلى مسألة تطبيق الشريعة كهدف مطلق ومستقل عن الظروف الخارجية التي لا تسمح بذلك، وهم في هذا يشبهون تماماً من يفترض أن ذمة المؤمن لا تبرأ حتى يسعى لتكوين ثروة يخرج الزكاة منها فهذا الخطأ نجم من عدم مراعاة العلاقة بين الشرع والمشرع له فجعل أحكام الدين في درجة واحدة دون مراعاة أحوال المكلفين وهو أمر في غاية الأهمية ..

"إن أحكام الشريعة في درجة واحدة من حيث صيغة وجوبها ولكنها تختلف من حيث علاقتها بها في التطبيق، ومثال ذلك أن الصيغة الشرعية لحكم الصلاة ولحكم الزكاة في صورة واحدة من الناحية الشكلية (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا)، (البقرة: 43).

أما انطباقهما علينا فليس متشابهاً أو من درجة واحدة : فإذا عرض أحد الناس الخريطة الكاملة لجميع أحكام الدين وإدعى أن جميع المؤمنين مكلفون بها في جميع الظروف، فمثله كمثل الذي يشير إلى أحكام جميع أنواع الزكاة ثم يدّعي أن جميع المسلمين مكلفون بالسعي لامتلاك جميع أنواع الثروات حتى يمتثلوا لجميع أنواع أحكام الزكاة".

(حكمة الدين/ ص : 56)

وهذا تماماً ما يذهب إليه التفسير السياسي للدين فهو يعرض الخريطة الكاملة لجميع أحكام الدين الشرعية ويطالب جميع المؤمنين بتنفيذها بصفة مطلقة، أو السعي لتنفيذها بصورة متشابهة دون مراعاة أحوال المكلفين ونوعية وجوب أحكام الدين علينا، ولما كانت مسألة تنفيذ الشريعة تقتضي الحصول على السلطة السياسية لتنفيذها فصار طبقاً لهذا التفسير وجوب تغيير النظام السياسي القائم ليتم ذلك وصار وجوب الحكم الشرعي وفق التفسير السياسي مطلقاً وأن المراد من إقامة الدين وتحقيق التوحيد وحصول العبادة هو تنفيذ الأحكام الشرعية كافة التي نجدها في الإسلام في جميع الأوقات والظروف والبلدان وهذا هو خطأ التفسير النظامي للدين وكان من نتيجة هذا التفسير أن الهدف الأصلي لرسالة الرسل اختلف ليحل محله هدف إقامة النظام السياسي، وصارت هذه العملية أوسع عمليات الانتحار الجماعي في الدين في العصر الحديث !

(8) قضية حساسة

إن قضية السلطة السياسية، قضية خاصة وحساسة للغاية، وهي سيطرة الطرف الأقوى، ومن هنا كانت دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) المستمرة إلى عدم جعلها هدفاً للدعاة في أحاديث واضحة ومشهورة وصحيحة، وعندما نشير إلى هذه الأحاديث وكذلك إلى أقوال العلماء التي تتفق مع هذه الأحاديث لا يعني ذلك في الواقع الإقرار بالظلم أو الفساد معاذ الله وما أظن القارئ يستطيع أن يتهم سيد الرسل وهؤلاء العلماء بذلك، نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التعرض الجارح للسلطة القائمة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يمنع من تقديم النصيحة بأسلوب أمثل، ولكن نهى نهياً صريحاً عن استخدام العنف والتمرد باسم الدين، لأن ذلك يكون أعظم سبب للتفرق في الدين الذي أمر الله بإقامته :

(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)

(الشورى : 13)

ذلك لأن مصلحة المجتمع مرتبطة بالإتحاد لا بالتفرق وبالأمن لا بالخوف وبحفظ الأرواح لا بتضييعها، وهؤلاء الذين يقدمون على ذلك باسم الدين إنما يقضون على الدين في الحقيقة وعملهم خالٍ من الشرعية، مهما كانت مبرراتهم وتأويلاتهم، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حسم هذه القضية ، وأجمع الجمهور من الأمة على هذا الأمر وخالفهم في هذا الشيعة والخوارج والمعتزلة.

وفيما يلي النصوص القاطعة من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأقوال الأئمة الذين يعبرون على اتجاه أهل السنة :

1- عن عبادة بن الصامت قال : دعانا النبي (صلى الله عليه وسلم) فبايعناه فقال فيما أخذ علينا بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا نتنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان.

(رواه البخاري)

قال الإمام النووي : "ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك

فأنكروا عليهم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة أو ظالمين".

(محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان ص : 483)

2- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

"إنها ستكون بعدى أثره وأمر تنكرونها قالوا : يا رسول الله. كيف تأمر من أدرك منا ذلك. قال تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله الذي لكم" (متفق عليه)

(البخاري / كتاب الفتن - مسلم باب الإمارة - الترمذي / الفتن)

3- عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)،

يقول "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم قال : قلنا يا رسول الله أفلا ننبذهم. وفي رواية "أفلا نقاتلهم" قال : لا، ما أقاموا فيكم الصلاة"

(رواه مسلم / باب الإمامة)

4- عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) فقال : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم

ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ - فأعرض عنه - ثم سألهم فقال رسول الله (صلى الله عليه

وسلم): "اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حُمِّلتم.

(رواه مسلم / باب الإمارة)

5- عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع :

"استنصت الناس، ثم قال : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض".

(متفق عليه / باب الإمارة)

6- عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : "من رأى من أميره شيئاً

يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية".

(متفق عليه / مسلم - باب الإمارة)

7- عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : "من كره من أميره شيئاً

فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات

ميتة جاهلية".

(متفق عليه) (رواية البخاري)

8- قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده وليخل به، فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي له والذي عليه".
(أخرجه الحاكم (ح/3:ص:29) والبيهقي (ج/8:ص:164). رجاله ثقات وإسناده متصل)

ملاحظة

هناك من يعترض ويقول أن الأحاديث تشير إلى نوعية معينة من الأئمة الذين لا يجوز معهم ما يجوز مع غيرهم، ويستدلون بفتاوى وأقضية لا علاقة لها بالقضية المطروحة وهذا لا يصح.

في هذا قال الإمام ابن تيمية :

"يقولون (أهل السنة) أنه (الحاكم) يعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ويطاع في طاعة الله دون معصيته، ولا يخرج عليه بالسيف، وأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما تدل على هذا. كما في الصحيحين، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (صلى الله عليه وسلم):

"من رأي من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس يخرج عن السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية" فجعل المحذور هو الخروج ومفارقة الجماعة وأمر بالصبر على ما يكره من الأمير، لم يخص بذلك سلطاناً معيناً ولا أميراً معيناً ولا جماعة معينة وهي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين الذين لهم سلطان يقدرون به على سياسة الناس لا بطاعة معلوم ولا مجهول".

(منهاج السنة 1 / 386)

موقف علماء الأمة من قضية الخروج السياسي باسم الدين:

1- مالك بن أنس :

يتحدث محمد أبو زهرة في كتابه "مالك حياته وعصره" عن موقف الإمام مالك من قضية الخروج السياسي فيقول : "كان مالك لا يرى أن حكم الخلفاء الذين عاصروه هو حكم الإسلام ولكنه لم ير جواز الانتفاض عليهم ليأسه من الإصلاح عن طريق الانتفاض، ولأن الفتن التي بلغه خبرها، والتي شاهدها لم تنقل الأمر من فساد إلى صلاح، بل كانت تحوله من فساد إلى فساد، ومع هذا الرأي لم يقطع صلته بالخلفاء والأمراء، بل كان يرى من الواجب عليه إرشادهم وإصلاحهم، لأنه رجل ينظر إلى واقع الأمور، ولا يقف عند الصور المثالية وحدها، وقد وجد أن وعظ هؤلاء يذهب ببعض ما يقعون فيه ويقلل من شرهم، وربما حملهم على الصلاح المطلق، وصار منهم مثل عمر بن عبد العزيز.

لذلك كان يدخل على الأمراء والخلفاء ويعظهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الخير فهو يحمل نفسه عناء الذهاب، ويغلظ عليها ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكان يؤثر إرشادهم على التحريض عليهم، وكان يقول : لولا أنني آتيهم ما رأيت للنبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه المدينة سنة معمولة بها"

(أنظر : كتاب "مالك حياته وعصره ص : 64 – 65)

وبعد أن يذكر أبو زهرة المحنة التي نزلت بمالك في عهد أبي جعفر المنصور يقول معقباً :

"إنما القضية التي هي موضع نظر هل حرّض مالك على الخروج، وخاض في الفتنة؟ الجواب عن ذلك لا بلا ريب بدليل قول ابن جرير نفسه : "ولزم مالك بيته" فهو انقطع عن الناس، لكي لا يخوض في الفتنة".

ثم يقول في موضع آخر : "ويظهر أن أهل المدينة عندما رأوا فقيها وإمامها ينزل به ذلك النكال سخطوا على بني العباس وولاتهم وخصوصاً أنه كان مظلوماً، فما حرّض على فتنة، وما بغى، ولا تجاوز حد الإفتاء، ولم يفارق خطته قبل الأذى وبعده، فلزم درسه بعد أن أبّل من جراحه واستمر في درسه لا يحرض ولا يدعو إلى فساد".

(أنظر : نفس المرجع السابق ص : 63)

2- ابن تيمية :

يقول : "أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال : "أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم". ولهذا من أصول السنة والجماعة : لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة".

(أنظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص : 20)

ويقول ابن تيمية : "إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى"

(أنظر : منهاج السنة 2 / 87 ط، الأولى - القاهرة)

3- الأشعري :

"إن أهل الحديث اتفقوا على أن السيف (استخدام السيف في تغيير السلطة) باطل، ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية، وأن الإمام قد يكون عادلاً ويكون غير عادل، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان، ولم يروه".

(أنظر : مقالات الإسلاميين واختلاق المصلين 451/2 ط/اسطنبول 1929 م)

4- الطحاوي :

يقول الإمام الطحاوي : "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمرُوا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافة"

(العقيدة الطحاوية / 428 منشورات المكتب الإسلامي)

5- النووي :

"وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل بالفسق وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه".

(شرح صحيح مسلم : 12 / 229)

6- القرطبي :

قال القرطبي بعد أن تحدث على الخروج عن الإمام :

"والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين والفساد في الأرض".

(أنظر تفسير القرطبي : 2 / 108 – 109)

7- الحافظ ابن كثير : "صاحب التفسير :

يقول : "والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا".

(ابن كثير / البداية والنهاية 8 / 223 – 224)

8- الإمام أحمد بن حنبل :

"ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه ... بأي وجه من الوجوه كان بالرضا أو الغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية".

(المناقب لابن الجوزي ص : 76)

9- ابن قيم الجوزية :

يتحدث عن شروط الإنكار فيقول : "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) شرع لأئمة إيجاب إنكار المنكر ليحصل - بإنكاره - من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبيغضه إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة على وقتها، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا، ما أقاموا الصلاة. وقال : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزع يداً من طاعته".

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه فقد كان رسول الله ع يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها بل لما فتح الله مكة وصارت دار

الإسلام عزم على تغيير البيت وردّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قریش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد يكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه.

(أنظر أعلام الموقعين 4 / 3)

هذا هو موقف علماء الأمة من مسألة الخروج السياسي أما ما يتعلق بمسؤولية الحكام فقد وردت أحاديث فيها توجيهات صارمة من النبي (صلى الله عليه وسلم) ويكفي قوله : "ما من أحد من أمتي ولى أمر من المسلمين شيئاً لم يحفظهم بما حفظ نفسه وأهله إلا لم يجد رائحة الجنة".

(متفق عليه)

ويجب في نفس الوقت أن نلاحظ أن كافة الآيات التي تدور حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما تستهدف بالدرجة الأولى الدعوة إلى الإسلام كما قال شيخ المفسرين الإمام الطبري : "كلما ذكره الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف دعاء من الشرك إلى الإسلام، والنهي عن المنكر : النهي عن عبادة الأوثان والشياطين".

(أنظر تفسير الطبري للآية 79 من سورة براءة)

وقال ابن عباس : "لا إله إلا الله أعظم المعروف والتكذيب هو أنكر المنكر".

(الطبري ج 4 / 28)

وقال المفسر الرازي : "أعرف المعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة وأنكر المنكرات الكفر بالله".

(التفسير الكبير 28 / 3)

والحقيقة أن المهمة الرئيسة للدعاة هي الدعوة إلى دين الله: "أما قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوسط الإسلامي فيقتضي أن تكون وفق الشروط والاعتبارات التالية :

الشرط الأول : إن أهم شرط يقتضي مراعاته في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو نسبية العمل به فهو ليس مطلوباً بصورة مطلقة وهذا ما تقتضيه الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(المائدة : 105)

ومعنى أن الآية صريحة في الاهتمام بإصلاح النفس على المستوى الخاص، فإن آيات أخرى تدل على ضرورة القيام به :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(آل عمران : 110)

وهذا ما يؤكد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلوب بصورة مشروطة ومقيدة، وهذا التقييد وردت به وأكدت الآثار، ومن ذلك حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي رواه أبو ثعلبة الخشني عندما جاء رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يسأله عن تأويله آية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) "بل انتمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام".

(رواه ابن ماجه / كتاب الفتن)

فالمصلح والداعي إلى الحق يجب أن يكون خبيراً بأحوال الناس من حوله وأهم مسألة مدى استعدادهم لقبول النصيحة وفي القرآن إشارة لهذا :

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) (الأعلى : 9)

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ)

(يس : 11)

وهذا ينطبق تماماً على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو يتعين عند وجود الأحوال الملائمة وهذا يرجع إلى وعي الداعية وبصيرته وفي أحوال خاصة يرشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجهاً قوله لأحد الصحابة :

"إلزم بيتك، وأملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة".

(جامع الأصول 10 / 6)

وفي الحال الذي يكون فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير مطلوب ويؤدي إلى مفسدة أشد يكون غير جائز بل من الأمور المحرمة يقول الإمام ابن تيمية : "فيأتي

بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع لله ورسوله وهو معتد في حدوده كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم مما غلط فيما أتاه الله من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك وكان فسادُه أعظم من صلاحه".

(رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص : 19 - 20)

الشرط الثاني : من القواعد التي يجب مراعاتها في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحكمة العملية، وهو بتعبير آخر الصواب العملي مع الصواب النظري ولهذا قال المفسر الطبري في تأويل الآية :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(البقرة : 269)

إن معنى الحكمة هو : "إصابة الحق في القول والعمل". إنَّ معظم الدعاة يعرفون حديث : "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر". (رواه أبو داود في الملاحم)، إلا أنهم لا يعرفون تأويل هذا الحديث تأويلاً صحيحاً ولا حاجة بنا هنا إلى الاعتماد على الاجتهاد في تأويل الحديث، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوضح أسلوب التطبيق الصحيح في حديث آخر قال فيه :

"من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده وليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدّى الذي له والذي عليه".

(أخرجه البيهقي 8 / 164 وأخرجه الحاكم 3 / 290)

ولقد ورد أيضاً في الأثر ما يؤكد هذا الحديث عندما سئل ابن عباس رضي الله عنه عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر فقال : "إن كنت فاعلاً ولا بد ففيم بينك وبينه".

(ابن رجب الحنبلي / جامع العلوم والحكم ص : 21)

إنَّ أهم ملاحظة أن (كلمة حق) معناها النصيحة، وليس النصيحة إلا دعوة مخلصة مليئة بالشفقة والمحبة، لأنه لا يمكن أن تصدر النصيحة من قلب مليء بالبغض والنقمة للمنصوح له.

الشرط الثالث : ومن القواعد الأساسية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنَّ مدار الدعوة فيه يجب أن يكون في مجال العقائد المتفق عليها، إن الأمور الاستنباطية

والاجتهادية وهي المسائل التي يكون فيها الخلاف إذا جعلناها محوراً ومداراً للدعوة سوف يكون ذلك سبباً لتمزق وتفرق الأمة فيتحول الدين الواحد إلى عدة مذاهب وفرق وهو الأمر الذي منعه الدين وجعله في مستوى الشرك: (مُنْيِبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(الروم : 31 - 32)

يقول وحيد الدين خان :

"وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال العقائد المتفق عليها إنما هو وحده الإقامة للدين، وعلى العكس من هذا فالقسم الثاني (المسائل الخلافية) سوف يبعث الشقاق، ويحدث الشروخ في الدين وهو ما يسمى بالمصطلح القرآني (التفرق في الدين).

فمثلاً نحن نعلم أن الموضوع من أجل الصلاة متفق عليه كما هو في القرآن والحديث، إلا أن الآراء المتعلقة بآداب الموضوع مختلف عليها، فإذا أقمت دعوتك على ضوء المسائل المختلف عليها، فلا يمكن أن تتفق الآراء حولها، وهكذا سيكون عمك هذا سبباً في ظهور الاختلافات والفرقة، وسوف يقسم الأمة إلى عدة أمم، ولهذا قد صدر الأمر بعدم جعل مدار الدعوة على الأمور المختلف عليها.

وهذا التعامل مع العبادات ينطبق على السياسة الإسلامية أيضاً، فإذا قام شخص فدعاً الله أن يصلح الحكام، والتقى بهم لقاءً فردياً ونصحهم بعبادة الله والاعتبار باليوم الآخر، وأوضح جوانب السياسة الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح متزن فلن يكون هناك تفرق أو إشاعة للفتنة بين رجال الأمة، وعلى العكس من ذلك، إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاج وكوّن جبهة سياسية للمعارضة، وقام بحركة تهدف إلى تنحية الحكام عن السلطة، فإن النتيجة هي أن تصبح الأمة جماعات متفرقة، وتنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب أحدهما الأخرى ويظهر التفرق في الدين باسم إقامة الدين.

وكما أنّ آداب الموضوع مسألة استنباطية، وهو سبب وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم لتحديد ذلك الحال بالنسبة للرسالة السياسية الإسلامية، فهي تقوم على أساس الاجتهاد والاستنباط لأنه لا يوجد في القرآن والحديث نصّ يحدد صراحة نوعية الرسالة السياسية الإسلامية، ولهذا ظهرت آراء متعددة لدى العلماء حول هذه المسألة.

(9) الدين النصيحة

إن الدين الصادق ينشئ في نفس المؤمن روح التواضع والخشية ومحاسبة النفس بدلاً من محاسبة الغير : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"

(رواه الحاكم)

وفي نفس الوقت فإن الدين الزائف ينشئ في نفس صاحبه روح الكبر والغفلة ومحاسبة الغير بدلاً من محاسبة النفس، ولا يقتضي أن يكون هذا النوع من الناس جاهلاً بالقرآن : "إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قال : قلت يا نبي الله : أيهما أولى بالشرك المرمى أو الرامي، قال : بل الرامي".

(إسناده جيد. أنظر ابن كثير التفسير 3 / 252)

إن الدين لا يختفي كلياً من هؤلاء الذين تسيطر عليهم لهفة الحكم على الآخرين بالشرك أو الكفر قد يكونون على مستوى من المعلومات الدينية، قراءة القرآن، ولكن يتأولونه على غير تأويله، وفي الأثر قال الرسول (صلي الله عليه وسلم) : "هلاك أمتي في الكتاب ... يتأولونه على غير تأويله".

(جامع بيان العلم وفضله)

وفي هذا الشأن قال الإمام الشاطبي : "إن معرفة أسباب النزول يعين على فهم المراد من الآيات، ولأهمية هذا العلم قد ورد في الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلا بنفسه يوماً يسأل كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنه نزل علينا القرآن فقرأناه ونحن نعلم فيما نزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون فيه (رأي) فإذا كان لهم فيه

(رأي) اختلفوا فإذا اختلفوا ضلوا. وقد روى بن وهب عن بكير يسأل نافعاً كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية، قال : يراهم شر خلق الله إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين فهذا الرأي الذي نبّه إليه ابن عباس".

(الشاطبي / الموافقات في أصول الشريعة 3 / 341)

إن الداعية الرباني لا يبدأ دعوته بإدانة الآخرين أو الحكم عليهم بالكفر والهلاك، لأنّ مقام الحكم على العباد هو من حق رب العباد وحده. قال (صلى الله عليه وسلم): "إذا سمعتم الرجل يقول : "هلك الناس" فهو أهلهم".

(رواه الإمام مسلم)

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه تحدث يوماً فقال : "كان في بني إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد في العبادة وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على الذنب فيقول يا هذا أقصر، فيقول خلّني وربّي أبعث عليّ رقيباً ؟ إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له : ويحك أقصر، قال : خلّني وربّي أبعث عليّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة أبداً، قال : فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أكنت عالماً، أكنت على ما في يديّ قادراً ؟ اذهبوا به إلى النار، قال : والذي نفس أبي القاسم بيده إنه لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته" رواه الإمام أحمد. (مختصر تفسير ابن كثير للصابوني 1 / 401)

ولهذا السبب قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضاً : "لا يرمي رجل رجلاً رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك".

(أخرجه البخاري)

ف نجد أنّ هدي الرسول والصحابة ترك الحكم لله وحده، وقد خاطب الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(الأنعام : 107)

وفي أوج العدوان الظالم من قبل مشركي مكة على الرسول والصحابه في غزوة أحد بدرت من الرسول الكلمة التالية : "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل".

(رواه مسلم)

فنزل قوله تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(آل عمران : 128)

فهذه الآية دلت على أن الحكم على عباد الله في الدنيا والآخرة من شأن الله وحده لا شريك له في الأمر كله (وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا). ويجري حكمه فيهم إما بالعذاب للظالمين أو بالتوبة عليهم. يقول المفسر ابن كثير معقباً على الآية السابقة : ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

(تفسير ابن كثير مختصر الصابوني 1 / 317)

ومن ذا الذي يستطيع أن ينازع الله في شأن عباده وخالقهم ومليكهم وأمرهم كله بيده:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

(آل عمران : 129)

وليس القاعدة في الإسلام إذن تكفير العباد بحيث نعتبرها من القواعد الشرعية التي تعبدنا الإسلام بها، بل الأدلة الشرعية كلها تذهب إلى خلاف ذلك، وهي تؤكد على خطورة حكم التكفير، وحتى الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام قد تركهم الإسلام وأوكلهم إلى خالقهم، وقبل منهم ظاهرهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، وقال عنهم الرسول (صلي الله عليه وسلم) : "إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم"

(رواه البخاري ومسلم)

إن أهم ملاحظة يقتضي أن نسجلها في هذا الشأن أن الإسلام يحرص حرصاً عظيماً على توجيه الفرد إلى محاسبة نفسه بدلاً من محاسبة غيره : "الكَيْسَ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت".

(رواه الحاكم وصححه)

والمسلم الصادق يهتم بالدرجة الأولى بمحاسبة نفسه لا محاسبة غيره، وتتكون شهوة محاسبة الغير في النفوس الخالية من روح التواضع والخشية. ولقد روى أبو هريرة هذا الأثر : "يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عين نفسه".
(رواه البخاري / الأدب المفرد)

وأخطر حكم هو حكم الكفر والشرك على المسلم، قال سفيان الثوري (من التابعين):
جاورت مع جابر بن عبد الله بمكة ستة أشهر فسأله رجل : هل تسمون أحداً من رجال القبلة كافراً ؟ قال معاذ الله، قال فهل تسمونه مشركاً ؟ قال : لا"

(رواه أبو عبيدة القاسم بن سلام — كتاب الإيمان — حققه ناصر الدين الألباني، قال
إسناده صحيح على شرط الإمام مسلم)

وحين تعتري العبد روح النعمة العارمة تجاه الناس لسبب من الأسباب سوف يندفع في الاتجاه الخطأ فيتحول الاهتمام من محاسبة نفسه إلى محاسبة غيره، والانشغال بإدانتهم والحكم عليهم، فيفقد أهم صفة من صفات الإيمان ألا وهي التواضع وتأكيد العجز أما خالقه.

والحقيقة أنّ الدعوة ليست إظهاراً للنزعة العدوانية على البشر ولو كانوا كافرين،
والقرآن ينهانا صراحة أن نبدأ بالعدوان :
(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(البقرة : 190)

فالدعوة الربانية تقوم على أساس النصيحة كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم):
"الدين النصيحة" والنصيحة لا يمكن أن تكون مجردة من المحبة للمدعو والإشفاق عليه
من عذاب الآخرة، ولهذا فإنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان مثلاً عظيماً للشفقة
والرحمة على الناس، وتصل به الشفقة والحزن إلى حد الهلاك: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)

(الكهف : 6)

باخع أي مهلك نفسك حزناً لعدم إيمانهم وعندما طلب بعض الصحابة في غزوة الطائف أن يدعو على المشركين أثناء الغزوة وقد قتلوا بعض الصحابة كان جوابه :
"إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً".

(أخرجه مسلم ، كتاب البر)

ولهذا السبب قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة". (أخرجه مسلم / كتاب البر)

وموقف الإسلام مع الأمم والشعوب غير المسلمة أساسه السلم والتسامح والبر وليس العدوان طالما كانوا مسالمين للمسلمين :

(فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُفَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا)
(النساء : 90)

(لَا يَنْهَأُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(الممتحنة : 8)

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثالاً للتسامح والصفح مع أشد الناس عداوة له، وكان هدفه العظيم المائل نصب عينيه دائماً وهو إنقاذ الناس من النار هو الباعث العظيم لكل سلوكه، حتى أنه ينسى بسبب ذلك كل ماضي وتاريخ خصمه. لقد فعل هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع قاتل أحب الناس إليه عمه حمزة بن عبد المطلب، فلم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينتقم لنفسه قط. ومن الأمثلة الرائعة على هذا السلوك الإيجابي كان مع عكرمة بن أبي جهل (الذي كان والده أعدى أعداء الإسلام) فعندما فتح الرسول مكة فرّ عكرمة إلى اليمن، وكان هو أيضاً من أشد الناس عداوة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن الذين نقضوا عهد الحديبية، ولكن زوجته أسلمت وطلبت له من الأمان من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقبل ذلك، فسافرت في طلبه، وأقنعت بالعودة وهي تقول له: "جئتك من عند أحلم الناس وأكرمهم". ووافق عكرمة على القدوم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعندما دنا من مكة قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : "يأتیکم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت

يؤدي الحي ولا يبلغ الميت" ولما رأى الرسول عكرمة وثب إليه وما على النبي من رداء فرحاً بعكرمة".

(حياة الصحابة 1 / 155)

فالداعي أثناء سعيه من أجل هداية المدعو يسلك أسلوب اللين والتسامح وهذا هو روح النصيحة حتى أنه لا يستجيب لردّ الفعل، وكل ما من شأنه أن يصرف المدعوي عن الاستماع له، وهو يقدم أدلته خالية من أنواع الاستفزاز، وفي كل الأحوال فهو يقدم دعوته بالأسلوب الأمثل الخالي من التعيب، إذ لو اشتملت على التعيب لجاز أن يقابل بمثله ولهذا قال الله تعالى :

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)

(الأنعام : 108)

فالأسلوب الأمثل للداعية هو اللين لا الغلظة، وبذلك وحده يصل إلى قلب المدعو (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۚ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54))

(الإسراء : 53 – 54)

إنّ الشيطان يجد فرصته الكبرى عندما يفتن الناس بالأقوال المهيجة للشر والعداوة، ولهذا كان يجب علينا الانتباه واجتناب كل الأقوال التي تؤدي وتهيج الشر وتوقظ الفتنة. ولقد روى الإمام البخاري من حديث أبي هريرة في الرجل الذي أتى به لرسول الله وهو قد شرب الخمر، فأمر الرسول بعقوبته، فلما انصرف قال بعض القوم : أخذك الله. فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : "لا تقل هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان" وفي رواية أخرى للبخاري : "لا تكونوا عون الشيطان على أخيك" وفي سنن أبي داود : "ولكن قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه".

إن تقديم النصيحة بالأسلوب الأحسن هو الأسوة الصحيحة، ولو كان المخاطب فرعون، فإن الله أمر موسى وهارون بأن يخاطب على هذا المستوى حين أرسلهما إليه فقال :

(اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44))
(طه : 43 - 44)

كان فرعون في ذلك الوقت يزعم الألوهية، وبلغ من طغيانه أنه كان يعذب بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم يقول ابن كثير : "وهذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين".

(التفسير 4 / 517)

ذكر الإمام الغزالي أن رجلاً دخل على الخليفة المأمون العباسي يأمره وينهاه فأغلظ له في القول، وكان المأمون على قدر كبير من العلم، فقال له : أرفق، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق، ثم بين ذلك للرجل، فقال : بعث الله موسى وهارون وهما خير منك إلى فرعون، وهو شر مني، وكانت وصية الله لهما :
(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)

(طه : 44)

ولذلك كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوصي أن يكون أسلوب الناصح والداعية أسلوباً ليناً رقيقاً : "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"، "يسرّوا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفروا".

وفي معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بن أبي في المدينة عبرة عظيمة، فهو كان من المنافقين، بل رأسهم، نزلت من شأنه آيات كثيرة تتوعده، فلقد جاهر بالعداوة مراراً لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأكثر من ذلك فهو صاحب حديث الإفك، حيث تقول في عرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واتهم السيدة عائشة أم المؤمنين، وهو الذي قال : "ليخرجن الأعز منها الأذل". وفي الصحيحين عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في سفر أصاب فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : "لا تنفقوا علي من عند رسول الله حتى ينفضوا".

وعندما وقع حديث الإفك، جاء ابنه عبد الله إلي رسول الله وطلب منه الإذن بأن يقتل والده، فكان جواب الرسول : "بل نرفق به ونحسن صحبته".

(عيون الأثر لابن سيد الناس 2 / 95)

وهكذا كانت معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمنافقين وقد كانوا في الظاهر مسلمون مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويوادونهم كما كان، ومع علم الرسول بنفاقهم فإنه لم يحكم فيهم بحكم الكفار المظهريين للكفر.

قال ابن تيمية : "وكان حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحلّ منها شيئاً إلا بأمر ظاهر، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم".
(الإيمان : 201)

ولهذا يقول أيضاً الإمام الغزالي : "ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمه من دم مسلم واحد".

(الاقتصاد في الاعتقاد ص : 143)

ويقول الإمام ابن تيمية : "وأما قول القائل : إنّ الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنّوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة : هو مجموع ما أمر الله به رسوله".

(الإيمان ص : 210)

والنصوص الواردة عن الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله (صلى الله عليه وسلم): "يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان".
ولهذا كان رأي أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص.
(الإيمان ص : 210)

وقال ابن تيمية أيضاً : إذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به رسوله، فمتى ذهب بعض ذلك بطل الإيمان، فلزم تكفير أهل الذنوب، كما تقول الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الإيمان بالكلية كما تقول المعتزلة، وكلا هذين القولين شرٌّ من قول المرجئة، فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير، وأما الخوارج والمعتزلة، فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم".

(الإيمان : 209)

وقال أيضاً : "المقصود أن لا يجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها – ولو دعا الناس إليها – كافراً في الباطن إلا إذا كان مناقفاً، فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً".

(المصدر السابق ص : 205)

وفي نفس الوقت فإن الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع الرحمة واللفظ لم يجعل في الدين من صعوبة قاهرة :

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

(الحج : 78)

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

(البقرة : 185)

ولقد روى الإمام أحمد بسنده عن جابر رضي الله عنه، قال : اشترطت ثقيف على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل منهم إسلامهم وقال : سيتصدقون ويجاهدون.

وروى أيضاً عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأسلم على ألا يصلي إلا صلاتين، فقبل منه ..

إن هذه الآثار تؤكد حقيقة مهمة وهي خطأ من جعل الإيمان كله في درجة واحدة، فلقد قبل الرسول إيمانهم على شرطهم الفاسد، ومنه استنبط الإمام أحمد القول بصحة الإسلام على الشرط الفاسد، وكل ذلك يدل على الحكمة في تشجيع الإنسان على قبول الحق لا تنفيره وإحباطه أو تكفيره لأدنى الأسباب، حتى زعم من زعم : أن الإيمان إذا

ذهب بعضه ذهب كله، فجعلوا شعب الإيمان في درجة واحدة. وحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق".

(رواه البخاري / كتاب الإيمان)

يوضح أنه لا يصح تسوية الإيمان بعمل من أعماله في الدرجة، فلا يصح جعل مستوى لا إله إلا الله في مستوى إمطة الأذى عن الطريق، كما لا يصح تسوية الكفر الاعتقادي بالكفر العملي مثلما فعل الخوارج.

ويقول ابن تيمية في ذلك : "وتمام هذا أنّ الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة، ابن عباس وغيره : كفر دون كفر، وهذا قول عامة السلف، وهو ما نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) (إنه ليس بمؤمن) إنه يقال لهم : مسلمون لا مؤمنون، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي الإيمان مع إثبات اسم الإسلام، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملة، بل كفر دون كفر، كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى :

(وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

(المائدة : 44)

قالوا : كفر لا ينقل عن الملة وكفر دون كفر وفسق دون فسق وظلم دون ظلم.

(الإيمان ص : 335)

والأحاديث الواردة في حرمة تكفير المسلمين وحرمة دمائهم كثيرة، نشير إلى طائفة منها.

حرمة دماء المسلمين

حين علم رسول الله أن أسامة بن زيد قتل رجلاً (كان شديداً على المسلمين) قال له : "يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله، قال : قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً من

القتل ... وفي رواية "أفلا شققت قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا. من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ".
(أخرجه أحمد والبيهقي 8 / 192)

عن محمد بن مسلمة - رضي الله عنه - قال : أعطاني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيفاً فقال : يا محمد بن مسلمة! جاهد بهذا السيف في سبيل الله حتى إذا رأيت المسلمين فنتين تفتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ثم كفّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يدٌ خاطئة". (أخرجه الطبراني، وابن سعد في الطبقات 3 / 301)
(وقال الهيثمي ح 7 / 301 رجاله ثقات)

عن أوس الثقفي - رضي الله عنه - قال : دخل علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونحن في قبة مسجد المدينة، فأتاه رجل فساره بشيء لا ندري ما يقول. فقال : اذهب ! قل لهم : يقتلوه ثم دعاه، فقال : لعله يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال : نعم ! فقال : اذهب فقل لهم : يرسلوه ! فإني أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها حرّمت عليّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وكان حسابهم علي الله عز وجل.

(أنظر حياة الصحابة 2 / 427، قال : أخرجه أحمد والدرامي والطحاوي والطيالسي)

عن شمّر بن عطية قال : قال حذيفة - رضي الله عنه - لرجل : أيسرك أنك قتلت أفجر الناس ؟ قال : نعم ! قال : إذن تكون أفجر منه.

(أخرجه أبو نعيم في الحلية ج 1 / 280)

عن ابن عمر قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان ما قال وإلا رجعت عليه".
(متفق عليه)

وقال (صلى الله عليه وسلم): "من دعا رجلاً بالكفر أو قال : يا عدو الله، وليس كذلك إلا جاز عليه".
(متفق عليه)

وقال (صلى الله عليه وسلم): "من خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذي عهدها، فليس مني ولست منه". (أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه)

(مسلم / باب الإمارة - النسائي / في تحريم الدم - ابن ماجه / في الفتن)

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال : لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً، فقال سعد بن مالك - رضي الله عنه - وأنا لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً، فقال لهما رجل : ألم يقل الله :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) (الأنفال : 39)

فقالا : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله.

(تفسير ابن كثير 2 / 300 - طبقات ابن سعد 4 / 48)

(10) سنة الله

إن من الحقائق التي يكشفها لنا القصص القرآني ما يتعلق "بسنة الله" وهي بتعبير آخر القانون الإلهي الذي يحكم التاريخ الإنساني والمجتمعات الإنسانية وهو نظام آخر للعدل الإلهي وسنته في هذا الكون.

ومعنى السنة "الخطئة أو الطريقة المتبعة" وسنة الله ما جرى به نظامه في خلقه جمعها سنن ولقد وردت بهذا المعنى في عدة آيات من القرآن الكريم:
(وَإِنْ يَعْودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ)

(الأنفال : 38)

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

(آل عمران : 137)

وسنة الله يحكمها قانونان أساسيان هما :

أ – عدم التبدل (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

(الأحزاب : 62)

ب – عدم التحول (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)

(فاطر : 43)

فالله سبحانه وتعالى قد أمضى إرادته وأمره الكوني بسنن لا تتبدل ولا تتحول.
مثلا جعل الله شرط التمكن وإقامة الإنسان في الأرض تتم من خلال سلوك العدل وهو ما يسميه القرآن أيضاً الإصلاح وهو دفع الباطل وإقامة الحق الذي يعصم من الهلاك :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَىٰ بَطْلَمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(هود : 117)

والمجتمعات تحكمها سنن ربانية ماضية وهي التي تنظم الاختلال الذي ينشأ بإرادة الإنسان فإذا تنكّر الإنسان لهذه السنن وتجاوزها فإن الرد المباشر أن تنتقم هذه السنن فإذا تجاوز العدل مثلاً في سلوكه ومعاملاته فسوف يفقد مكانته، وإذا اعتدى وأفسد في الأرض فسوف يكون هو بالمثل ضحية الاعتداء وإذا قرر أن يحكم بأهوائه ويملي إرادته الخاصة التي تفصح عن كامل الأنانية والاستغلال فإنه سيجد أن رد الفعل في نفوس الناس قاسياً مثل قساوة الحجارة فهناك إذن ميزان وضعه الله سبحانه وتعالى في هذا الكون وهذا الميزان مهمته أن يعلى الحق أو يعلى ما هو خير بالنسبة للإنسان عموماً.

إن الله قد جعل الصلاح والخير والنعمة هي الأصل في هذا الكون ثم جعل العقاب يأتي نتيجة لتغيير هذا الإنعام الفطري نجد ذلك في هذه الآية الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) وخلاصة التفسير لهذه الآية عند الإمام الطبري: "أن الله لا يغير حالة القوم من الصحة والنعمة بأن يحرمهم منها ويهلكهم إلا إذا غيروا هم ما بأنفسهم بالأعمال الآثمة تجاه بعضهم البعض واعتدائهم بعضهم على البعض".

(تفسير الطبري 16 / 382 - 383)

أما ابن كثير فهو يرى : "أنَّ الله يخبرنا عن عدالته التامة وإنصافه في الحكم وأَنَّهُ لا يغير نعمة منحها لشخص إلا بسبب إثم يكون قد ارتكبه ذلك الشخص".

(التفسير 2 / 320)

ويتبين أنَّ المفسرين الأقدمين إنما يرون التغيير المشار إليه في الآية هو من الخير إلى الشر ويرى أحد الباحثين (جعفر شيخ إدريس) : "أنَّ السبب في ذلك يرجع بصفة رئيسية إلى أنَّ النعم طبقاً للقرآن لا تمنح للناس في بادئ الأمر نتيجة لأي عمل خير يقومون به ولكنها تمنح لهم فضلاً من الله. إِنَّ الله هو الرحمن الرحيم وذلك يعني أنه سبحانه هو الذي يبادر بالخير ثم يكافئهم من أجله. إِنَّ النعم سواء أكانت روحية أم مادية تمنح للناس من خالقهم وذلك ينبع من رحمته وفضله ولو أنهم كانوا شاكرين فسوف تحفظ لهم تلك النعم، بل إنما سوف تزداد ولكن لو أنهم ارتكبوا أفعالاً تتسم بالجحود فإنَّ الله يعاقبهم بأن يحرمهم من بعض تلك النعم إن لم يكن منها جميعاً".

(منهج التحول إلى الإسلام ص : 16. مجلة المسلم المعاصر عدد (18) 1979 - الكويت)

ولقد أشار نفس الباحث إلى أن الهلاك أو العقاب لا يقع على أمة إلا بعد شروط أو مقتضيات معينة هي :

- أن الهلاك لا يقع إلا بعد الإنذار الكافي :
(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) (الشعراء : 208)
- أو تكون قد بلغت حدا من الفساد والظلم إلى درجة أن تقر هذه الأمة بأنها وحدها الملوثة وأنها هي التي جلبت على نفسها الهلاك : (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) (الأنعام : 131)
- أن الهلاك لا يأتي مباشرة ذلك أن الله يعطي بلا مقابل وبلا حدود ولكنه لا يأخذ ما وهبه دفعة واحدة.

إن الله سبحانه وتعالى يرفع بأسه عن القوم في حالة تضرعهم ورجوعهم إليه :

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

(الأنعام : 43)

إن العدل ميزان كوني يلمسه الإنسان في كل شيء وخلق الله الإنسان على درجة من الشعور بهذا الميزان :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(الشمس : 7 - 8)

إن معنى ذلك أن الإنسان يدرك أن العدل نظام فطري وأن الظلم فساد وباطل على المستوى العقلي والعملية والشرعي والكوني.

ونريد أن نقول قد يجهل الإنسان شريعة الله العادلة ولكن لا يعطيه ذلك مبرراً للظلم والفساد بل نجد أن الإنسان حساس جداً لسلوك (الظلم) فهو يحاول بكل ما أوتي من إدراك أن يبحث عن الصورة الحقيقية للعدالة. مسترشداً بالميزان الكوني – ومن هنا فإن دولة غير مسلمة تقيم العدالة بين الناس وتحترم حقوق الأفراد وتسعى لتنفيذ قانونها على أساس المساواة لا التمييز فهي جديرة بالاستمرار والبقاء، ودولة مسلمة ظالمة، لا تحترم حقوق الأفراد ولا تنزلهم في درجة واحدة عند تنفيذ القانون ولو كان قانونها شريعة إلهية فهي غير جديرة بالبقاء والاستمرار وصار تطبيق الشريعة فيها لا معنى له كما أشار حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): "إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".

ومن هذا نفهم أن لمعنى العدل مستويين المستوى الشرعي، والمستوى الفكري الكوني، والإنسان مطالب بأن يجعل سلوكه مطابقاً للقرآن، وهو القانون الناطق والمعبر عن الميزان الفطري والكوني للعدل.

إن العدل مطلوب بصورة أساسية في هذا الكون ليمضي في استقامة: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(يس : 40)

وهذا النظام الكوني يقتضي على الإنسان أن يهجه في حياته مع أخيه الإنسان، فيلتزم كل امرئ حدوده حيث لا يعتدي على حدود غيره. ويمارس حريته في حدود مجاله الذي يسبح فيه، وأهم مسألة هنا أن هذا القانون الفطري والكوني للعدل يستفيد منه المؤمن والكافر على السواء. إلا أن الشريعة الناطقة بالعدل قد يخطئ فهمها وتنفيذها المؤمن عندما يفقد إحساسه بمعناها، وعندما يجعلها تخضع لهواه فالشريعة ذات معنى ومقصد في كليتها وفي كل مادة من موادها، وأساس المقاصد التي وجدت من أجلها هداية وإصلاح الحياة البشرية. ولذلك أمر الله بتنفيذها :

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(البقرة : 179)

فتنفيذ الشريعة محبة في الإنسان لا محبة في الشريعة فإذا كان تنفيذ الشريعة متوخياً هذا الهدف فسوف يكون تطبيقها رحمة وإذا كان إحساس الناس بالمعنى والهدف قد تلاشى وأن الشريعة صارت في فهمهم مواد خالية من المعنى، وتطبق لمجرد الامتثال الظاهري لها فإن تنفيذها سوف يكون على غير الاستقامة المطلوبة وربما تحولت بذلك إلى مطية فساد بعد أن كانت مطية رحمة وعدل.

فلا بد من إدراك أن الذين يطبقون الشريعة يقتضي أن تكون لهم صلاحيات لذلك، ومن هذه الصلاحيات خشية الله ورغبتهم في تحقيق العدل ولو كان على حساب أنفسهم وعواطفهم :

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(المائدة : 8)

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل هدف الشريعة العدل فإذا كان العدل بمعياره الفطري والكوني قد طبق في دولة غير مسلمة فإن الله سبحانه وتعالى يضمن استمرارها وإن انحرفت الدولة المسلمة وسلكت سبيل الظلم فسوف لن يضمن الله استمرارها ولو كانت في الظاهر تدين بشريعة الله، وهذا ما عناه الفقيه ابن تيمية عندما قال : "إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة ولو كانت مسلمة".
(رسالة الأمر بالمعروف ص : 40)

إن وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين الذين يملكون حرية الاختيار في مجتمعاتهم أمر لا جدال فيه، ولكن لا يكفي مجرد الإشارة إلى مواد الشريعة في القرآن والسنة لإقناع الناس بأن الإسلام يحكم بالعدل عندما يطبق، لأن مهمة التطبيق نفسها يقوم بها دائماً الإنسان، والإنسان لا يستطيع أن يتخلص من ضعفه في كل الظروف، لأن ضعفه ملازم لطبيعته :
(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

(النساء : 28)

ومن هنا كان ينبغي دائماً الاحتراس من الانسياق وراء المنادين بالشعارات ذات المضمون الديني المثالي، ويجب النظر إليهم في ضوء الحقيقة الثابتة وهي (بشريتهم) التي تسمح لهم بكل شيء عندما يمتلكون السلطة، ولو كان ذلك السلوك ينجم بدون وعي أو شعور أو بمنطق تبريري.

طبيعة السلطة

إنَّ السلطة في حقيقتها عملية بشرية بالدرجة الأولى وإن الرجوع إلى النصوص القرآنية – لا يحول دون تدخل العنصر البشري في تفسيرها بالطريقة التي تلائم ذهن المفسر ودليل ذلك أن المودودي الذي يطلب إقامة حكم الله فسر القرآن بمجرد الرأي وبما لا يتفق مع إجماع المفسرين، والحقيقة أن أخطر حكم هو الحكم على كتاب الله. ولهذا فإن الصديق رضي الله عنه قال : "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي وفي رواية مما لا أعلم"

(تفسير الطبري 1 / 77 – 79)

وعندما شعر بعض المثقفين المعاصرين خطورة نظرية الحاكمية أشاروا في كتاباتهم إلى ذلك منهم حسن الهضيبي قال : "يجعل بعض الناس أساساً لمعتقدهم

مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله أو سنة الرسول أساساً من كلام البشر غير معصوم واردة عليه الخطأ والوهم".

(دعاة لا قضاة)

ولقد كتب الهضيبي مؤلفه السابق رداً على فكرة التكفير التي نجمت من تفسير المودودي لمعنى الحاكمية وبعد أن تلقاها (سيد قطب) وطبقها تطبيقاً واسعاً على المجتمعات الإسلامية المعاصرة - وتأثر بها جيل من الشباب وعنها نجمت جماعات التكفير والهجرة ... ومن النقد الذي وجهه المستشار حسن العشماوي من أن هذا الشعار يسند الفوضى : "إذ ترى كل فئة نفسها قيمة على حكم الله في الصغيرة والكبيرة ... فتسعى إلى تنفيذه ... فتتفرق الجماعة ويقتل بعضها بعضاً".

ولقد أيد د. محمد سليم العوا هذا الرأي مستنداً لما ترتب عليه من نتائج عند الخوارج: "يكفي لبيان مدى مساندة هذا الشعار للفوضى أو تسببه لها - أنه بجانب ما ارتكبه الخوارج بناءً عليه من مظالم أدّى إلى تفرق الخوارج أنفسهم إلى أكثر من عشرين فرقة وذلك ما دام (لا حكم إلا الله) على النحو الذي فهمه الخوارج - مادام الناس بطبيعتهم لن يتفقوا على قبول فهم معين في كل مسألة تعرض للنقاش أو يعرض فيها الخلاف فإن اختلاف الرأي سوف يعتبر دائماً (مطية) لتقاتل أصحاب الآراء المتباينة إذ يرى كل منهم إنما يسعى لإقرار حكم الله في الأرض".

(في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص : 106)

ولقد ورد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لمن يرسله في جيش أو سرية : "إذا حاصرت أهل حصن فسألوكم أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك".

(رواه مسلم)

ومثل هذا النص يدل على الفرق بين الحكم الشرعي والحكم الذي ليس فيه نص مثل الحكم السياسي والذي يقوم على الاجتهاد : "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر".

كان من آخر وصايا أبو الأعلى المودودي والتي اطلعت عليها في إحدى المجلات العربية (مجلة المجتمع الكويتية 1979) أنه كان قد حرّض المسلمين أن يكونوا مع

حكومة (الخميني) لأنها في ظنه تمثل الحكم الإسلامي "ولقد ظهر بهذا أن ما كان يبشر به المودودي خلا حياته كلها عبارة عن (حكومة كهنوتية)، وأن (حاكمية الله)، ليست سوى حاكمية الذين يحكمون باسم الله، وليس حكم الله نفسه، ويا خيبة من يظن أن الله سوف يكون هو حاكم الدولة التي يبشر بها المودودي إذا كان الذين سوف يحكمون هم بشر فيهم كل ضعف ونقائص البشر، إلا أنهم ينسبون (بصورة غير مباشرة) النقائص إلى (دين الله) (واسم الله) لأنهم غير مستعدين أن يعترفوا أنهم الذين يحكمون في النهاية وليس هو الله. وهناك فرق عظيم بين من يعترف أنه لا يحكم باسم الله فهو لا يدّعي هذه الدعوى الخطيرة فلا يكون فتنة للناس في الدين، ويضع مستوى الحكم في نطاقه السياسي والبشري البحت، وليس في نطاق المسائل الدينية المقدسة، إن أعظم جريمة عند الله هو أن يحكم أحد ما (باسم الله) ثم يكون هذا النظام أسوأ من أي نظام حتى أن الإنسان الذي يعيش في نطاقه يصرخ إذا كان هذا هو النظام الإسلامي، فإننا لا نريد حكم الله ويفر إلى حكم البشر، ولو كانوا من الكافرين.

إن أخطر التباس يقع فيه الذين يتبنون نظرية (الحاكمية) أنهم يلبسون الخطأ البشري الذي هو ملازم لطبيعتهم (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) (بدين الله وشريعته) فسيكون بذلك قد وضعوا رسالة الدين في موقف حرج وسوف يكون عملهم هذا قد أحدث في نفوس البشر عقبة عظيمة لقبوله واعتناقه وهي الجريمة التي ما بعدها جريمة وهكذا سيظهر عمل الذين يجاهدون باسم الله هو عمل ضد الله، وضد الدين بصرف النظر عن نواياهم أو غفلتهم لأنهم قد تجرؤوا على أمر في غاية الخطورة وهو زعمهم أنهم يطبقون حكم الله، وأنهم يطبقون كتاب الله، وهو الأمر الذي لم يستطع حتى عمر رضى الله عنه، أن يدعيه وهو من اشتهر في التاريخ الإسلامي بهذا الأمر على وجه خاص. فلقد روى ابن جرير قصة تعبر عن تواضع عمر "قال ابن جرير عن الحسن : أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه، فلقى عمر رضى الله عنه، فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا، قال أباؤنا قدمت ! قال : فلا أدري كيف ردّ عليه. فقال : يا أمير المؤمنين أن ناساً لقوني بمصر، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك، قال : فاجمعهم لي، قال فجمعهم له قال: ابن عون أظنه قال في بهو، فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله ؟ قال نعم قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال اللهم لا، قال : ولو قال نعم لخصمه، قال فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل

أحصىته في أثرك ثم تتبعهم إلى آخرهم، فقال : ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال :
(إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

(النساء : 31)

ثم قال هل علم أهل المدينة بما قدمتم قالوا : لا، قال : لو علموا لو عظمت بكم.

أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير إسناده صحيح ومثته حسن

(مختصر تفسير ابن كثير للصابوني 1 / 381)

إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مستعداً لأن يعترف بذلك لأنه كان يعرف نفسه معرفة جيدة، وأعظم معرفة هي معرفة الإنسان لنفسه، أنه مجرد عبد يخطئ ويصيب فيقول : "أصابت امرأة وأخطأ عمر" وهو كان مستعداً في كل لحظة أن يعترف بخطئه عندما يظهر له ذلك كما وصف الصحابة : "ما كان عمر بأعلمنا ولكن أسرعنا رجوعاً إلى الحق" إن عظمة الصحابة ليس لكونهم لا يخطئون بل في كونهم يعترفون إذا أخطؤوا ولقد كان عمر رضي الله عنه عنده سرعة عجيبة في الاعتراف بالخطأ بمجرد شعوره بذلك يقول د. محمد حسين هيكل: "فعمر وغيره من الصحابة لم يكونوا يفتنون برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه وحده الحق، بل على أنه رأى إن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن صاحبه فهو يستغفر الله منه. لقي عمر رجلاً له قضية فسأله: ما صنعت ؟ قال : قضي عليّ وزيد بكذا، قال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا قال فما يمنعك والأمر إليك ؟ فأجابه عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو سنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) لفعلت. لكني أردك إلى رأيي، والرأي مشترك لهذا لم ينقض ما قضى به عليّ وزيد وأبدى عمر يوماً رأياً، فقال قائل: هذا ما رأى الله ورأى عمر، فانتهره عمر، بقوله بنسما قلت ؟ هذا ما رأى عمر، فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمن عمر. وأمسك هنيهة ثم قال : السنة ما سنه الله ورسوله لا تجعلوا الرأي سنة للأمة.

(انظر الفاروق عمر ج الأول ط الخامسة - دار المعارف بمصر ص 285)

وهكذا لم يكن عمر يسمح لنفسه بأن يقول أنه يحكم باسم الله أو يجعل رأيه ملزماً للناس وكان يعترف بخطئه إذا أخطأ بدون أي عقبة نفسية، ومثل نفسيته المتواضعة كانت أعظم ضمان للعدل، وبذلك كان فرداً لا نظير له في التاريخ.

(11) خطة الله

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68))

(ص : 67 - 68)

إنَّ أهم شيء بل وأصل المسائل بالنسبة للداعي إلى الله أن يعرف خطة الله بالنسبة للنوع البشري ولا يمكن للداعي الحقيقي أن يدرك معنى الدعوة ومنهجها بدون ذلك والحقيقة أن هذه الخطة ليست قائمة على مجرد الظن أو القياس، بل هي واضحة وصريحة وثابتة في كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

1- إن بداية الخطة الإلهية : كانت مع وجود الإنسان نفسه، وذلك أن الله بعد أن خلق السماوات والأرض، عرض على الملائكة عزمه على خلق الإنسان (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32))

(البقرة : 29 - 32)

وبعد أن خلق الله آدم أمر الكون بما في ذلك ملائكته باستقبال هذا المخلوق بالتحية والإكرام فسجد الجميع عدا إبليس

(إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

(البقرة : 34)

خلق الله الإنسان بیده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود تحية له وهو في المنظور المادي لا يساوي شيئاً أمام الكون الرهيب، لكن الفارق بين الإنسان والكون يكمن في الوظيفة، وهو فارق عظيم يتمثل في الفرق بين الطاعة الشعورية وغير الشعورية، والطاعة الشعورية هي الوظيفة التي خلق من أجلها الإنسان.

2- الإيمان بالغيب : إن الاختبار البشري هو الإيمان بالغيب والإيمان بالغيب يعبر

عن التصديق بحقائق الغيب مع حصول الخشية.

وبهذا وصف الله المؤمنين: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(البقرة : 3)

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

(يس : 11)

فهم يوقنون بحقائق الغيب التي أعلنها القرآن كالإيمان بالله، والملائكة، والنبوة، واليوم الآخر، والجنة والنار دون مشاهدة مباشرة لها، لكن يوم القيامة ينقلب بساط الواقع فتصبح حقائق الغيب مشهودة وحينئذ : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا)

(الأنعام : 158)

وعلى ذلك فالفرق واضح بين المؤمن والكافر، فهذا سوف يخضع للحقيقة حينما يشاهدها بعينه يوم القيامة أما المؤمن فهو يعلن تصديقه للحقيقة الغيبية في الدنيا والله سيكافئه على هذا الإيمان الغيبي بالجنة، أما الكافر فالنار الأبدية مثواه إن المؤمن قد استسلم لعظمة خالقه عن طريق الغيب فدلل بذلك على نجاحه في الاختبار الإلهي أما الكافر فإنه قد دلل على فشله في الاختبار، لأن ذات الله مختفية وليست ملموسة في المنظور المادي فهي عظمة من وراء ستار، وتظهر عن طريق الحجة والآيات، وكل ما في هذا الكون آية على عظمة الله، والمؤمن هو من ينجح في إدراك ذلك، وبالتالي يستسلم لعظمة الله دون أن يراه، ولقد غيب الله سبحانه وتعالى ذاته وأفعاله المباشرة عمداً لاختبار الإنسان وسوف تظهر صفاته وأفعاله مباشرة يوم القيامة روى مالك الأشعري حديثاً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبين هذه الحقيقة : "إن الله تعالى يقول : ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي لو أراهن رجل ما عمل بسوء أبداً : لو كشفت غطائي فرأني حتى استيقن، وعلم كيف أفعل بخلقِي إذا أتيتهم وقبضت السموات بيدي ثم قبضت الأرضين ثم قلت : أنا الملك من ذا الذي له الملك دوني فأريهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوها وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها ولكن عمداً غيبت ذلك لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم."

(تفسير ابن كثير 6 / 109)

3- الإنسان والأمانة : إن موقف الملائكة من خلق الإنسان هو موقف من حيث المبدأ طبيعي عندما علمت جانباً من السلوك البشري كسفك الدماء والفساد، وهي قد خلقت في الطهارة التامة والتقديس الكلي للخالق. ولكن الله بعد أن خلق الإنسان (آدم عليه السلام) أطلع الملائكة على الجانب الآخر للسلوك البشري (استعمال الإنسان لحريته في طاعة وعبادة الله وهي جوهر الصفات التي حملتها ذرية آدم الصالحة والتي لم تعلمها الملائكة في حينها:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

(البقرة : 33)

والحكمة في ذلك أن الله خلق الإنسان حراً مسؤولاً وجعله يتحمل مسؤولية اختياره ثواباً أو عقاباً يقول الله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(الأحزاب : 72)

يقول الإمام ابن عباس أن معنى الأمانة هي الطاعة ولكن كما يتضح من الآية ليست كطاعة السموات والأرض والجبال ولكن الطاعة الشعورية التي تقوم على أساس الإرادة والاختيار والوعي، وهذا هو الفرق بين طاعة الكون وطاعة الإنسان فطاعة الكون كله طاعة غير شعورية، فتجد أن كل الكون ينفاد لله ويستسلم له فلا يتمرد فيه شيء على النظام الذي فطره الله عليه:

(وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(آل عمران : 83)

بينما المخلوق الذي يسلم لله طوعية وبإرادة حرة هو الإنسان، ولهذا كان عمل الإنسان أعظم قيمة عند الله من عمل هذا الكون، ولهذا السبب فإن الإنسان وحده الذي ينال عقاباً على تضييعه الأمانة، وينال مكافأة على قيامه بها.

ولكن ما هي العقبة التي تحول بين الإنسان وإستسلامه لله ودخوله في طاعته كما دخل فيها الكون كله ؟ إن أخطر عقبة (الكبر) وهي الناجمة عن تعظيم الذات مقابل

تعظيم الخالق وفي تعريف الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "الكبر بطر الحق وغمط الناس".

(رواه مسلم)

بطر الحق بمعنى رفضه وعدم قبوله وغمط الناس بمعنى ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاص حقهم ويروي مسلم عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" ولهذا قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".

فالكبر هو المانع من قبول الحق والخضوع له وهو في نفس الوقت أكبر الدوافع على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وانتقاص حقه ومن أجل دخول الإنسان الجنة لا بد أن يكون قلبه سليماً من الكبر :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(الشعراء : 88 – 89)

إن موقف الشيطان يعبر عن الكبر، وهو أساس الخراب والفساد، لأن الكبر مانع من الاعتراف بالحق، والتصديق به، كما أن التواضع هو أساس الصلاح والإصلاح، وهنا كان اختلاف الموقف الإنساني (آدم وحواء) من الخطيئة عن موقف إبليس المصر والمستكبر، لقد أخطأ إبليس ورفض الاعتراف بخطئه واعترف آدم ومعه حواء :

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(الأعراف : 23)

ولقد وجد آدم المغفرة، ووجد إبليس اللعنة الأبدية، واجتنبى الله آدم للنوبة، وتحول الشيطان إلى مخلوق قبيح وداعية إلى النار، وبدأ حرباً شعواء على النوع البشري:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَآئِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(الأعراف : 16 – 17)

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83))

(ص : 79 – 83)

وهكذا تدور معركة مستمرة لا تهدأ بين إبليس والإنسان إلا أن الله منبع الرحمة والعدالة جعل خطته مستمرة لإنقاذ النوع البشري من النار عن طريق الرسائل التي أرسلها تترى في كل العصور وفتح باب رحمته لكل من يسلك سبيل الاعتراف والخضوع له وحده ولقد حذر الله بصورة مستمرة الإنسان من عدوه الأبدي :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27))

(الأعراف : 26 – 27)

4- النبا العظيم : إن الله سبحانه وتعالى قد جعل يوم الحساب للفصل بين عباده (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) (النبا : 17)

يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقف النبيين والشهداء ليشهدوا على الناس، ويسئلوا عن تبليغهم رسالة الله كما سيقف الناس للحساب :

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يِظْلَمُونَ (9))

(الأعراف : 6 – 9)

وكانت المفاجأة العظيمة عندما يتحول كل شيء شاهداً علي أعمالهم :

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا

يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) (فصلت : 19 - 24)

هذه الحقيقة هي أهم خبر يجب أن يصل إلى الناس، لكي يستعدوا بالإيمان والعمل الصالح قبل فوات الأوان، إِنَّ السعيد من أقام الحياة الدنيا على معنى التوحيد في كيانه والشقي من عاش غافلاً عن هذا اليوم الرهيب :

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18)) (غافر : 16 - 18)

النار

عندما وقف الرسول الكريم عليه السلام، على جبل الصفا في مكة المكرمة لأول مرة وتجمع الناس حوله من كل مكان صاح فيهم صيحته المشهورة : "أنقذوا أنفسكم من النار" إن جهنم حقيقة والساعة آتية لا ريب فيها ولا يمكن للعقل البشري أن يتصور ما هي الأهوال الحقيقية التي سوف يظهر فيها عذاب الله الأبدي أمام العصاة، ولقد أُنذر الله عباده من هذه الكارثة الكبرى بأوضح ما يكون في كتابه، ويوم يسوق الملائكة الذين كفروا إلى جهنم سوف يتلقاهم خزنة جهنم بالسؤال التالي :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(الزمر : 71)

إن جهنم هي مأوى العصاة ليس لهم مهرب منها، ثيابهم فيها من النار :
(يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22))

(الحج : 19 - 22)

وهم يعانون الهوان والذل في هذا العذاب الأبدي، فتكون أمنيتهم الوحيدة أنهم لو
 رُدوا إلى الحياة الدنيا ليعملوا أحسن مما عملوا في السابق فلا يستجاب لهم :
 (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا
 كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي
 كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 نَّصِيرٍ (37))

(فاطر : 36 – 37)

فهل هناك قضية أعظم من هذه القضية ؟ وهل هناك نبأ أعظم من هذا النبأ ؟

وكما أن الملائكة سوف تقذف بالعصاة في قعر جهنم، فسوف تفتح أبواب الجنة أمام
 المؤمنين الذين صرفوا حياتهم في طاعة الله وأقاموا عظمتهم في نفوسهم :
 (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
 لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ
 وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74))

(الزمر : 73 – 74)

إن المؤمنين سوف يعيشون متنعمين في الجنة الأبدية، وهي جنات عالية ، عظيمة
 الاتساع عرضها السماوات والأرض :

(فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14)
 وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَوَاجِيٌّ مَبْنُوتَةٌ (16))

(الغاشية : 12 – 16)

إن الجنة دار المسرات الحسية والمعنوية والروحية، فهي دار الخلود للجسم والروح
 معاً :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ
 يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ)

(محمد : 15)

إن هذه الجنة سيرتها الذين آمنوا بما عملوا من الصالحات :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتْلُوا الْجَنَّةَ أَوْ رَتَّبْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

(الأعراف : 42 - 43)

الدعوة الربانية

إن الفرق بين الدعوة الربانية وغيرها من الدعوات، إن منهج الدعوة الربانية لا يقوم أصلاً على مبدأ ردود الفعل، الدنيوية والوقتيّة، بل يقوم على أساس الحقائق الأبدية الأخروية، إن أي حدث دنيوي وقّتي سوف ينتهي بنهاية الإنسان على الأرض، ولكن الآخرة حقيقة أبدية وهي الحياة الحقيقية، والفوز أو الخسران هما نهاية جهود الإنسان عندما يقف أمام الله يوم الحساب :

(فَمَنْ رُخِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) (آل عمران : 185)

إن الله جعل الدار الآخرة هي الهدف النهائي لجهود الإنسان المسلم، ولهذا السبب جعلها أساس الفوز والصلاح :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19))

(الإسراء : 18 - 19)

وأهمية الحياة الدنيا أنها مجال الاختبار الحقيقي، ونجاح الإنسان الحقيقي في هذه الدنيا هو أن يجعلها مجالاً لإثبات عظمة الله في نفسه :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ)

(الملك : 2)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(الذاريات : 56)

إن الله لم يجعل الحياة الدنيا دار كمال بل جعلها دار اختبار وابتلاء ومن شأن ذلك عرضتها للنقص والخسارة والظلم، فهي مكان معهود لذلك الفساد لسوء استعمال الإنسان حريته، ولا يعني هذا عدم التوجه لإصلاح الحياة البشرية في برنامج الدعوة الربانية

ولكن يكون هذا التوجه تبعاً لقناعة الإنسان بالدرجة الأولى، بعد اكتشافه حقيقة الحقائق (معرفة الله). فالدعوة الربانية تزرع بذرة التوحيد (خشية الله وعبادته) وتحبب الهداية لعباده، وهذه الدعوة تتوجه إلى كيان الفرد وليس الكيان الجماعي، لأن الجماعة أو الدولة ليس لها كيان نفسي، إنما الإنسان وحده الذي يملك كياناً نفسياً وبالتأثير في إرادة الإنسان يبدأ الإصلاح الحقيقي.

الرسالة الربانية

ما هي حقيقية الرسالة الربانية ؟ والجواب على هذا السؤال، من القرآن الكريم وهو المصدر الأول للإسلام، هو تنبيه النوع البشري إلى الآخرة، فالهدف من إرسال الرسل هو الإنذار :

(رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

(غافر : 15)

فالحقيقة المهمة هي أننا نقف أمام الله يوم القيامة لنحاسب على أعمالنا في الحياة الدنيا : (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ولأهمية هذا الأمر فإن الله سبحانه وتعالى جعل قضية الإنذار والتبشير وتبليغ رسالة الله متواصلة في النوع البشري يقوم بها الرسل لكي لا يكون لأحد عذر أمام الله يوم القيامة :

(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(النساء : 165)

وفي الحديث : "لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين".

(متفق عليه)

إن المطلوب من الإنسان ليفوز بالجنة وينجو من عذاب الله أن يؤسس حياته على التوحيد والتوحيد ليس قضية فلسفية أو كلامية (نسبة إلى علم الكلام) بل قضية اختبارية بالدرجة الأولى :

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(الملك : 2)

فمن جعل حياته القصيرة في الخضوع لله وحده واستقام على الإيمان والعمل الصالح فسوف يكافئ على ذلك بالنعيم الأبدي ومن استعمل حرите في المعصية والفساد والغفلة عن الحياة الآخرة فسوف يكون مصيره العذاب الأبدي والخسارة المطلقة، قال تعالى :

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (3))

(العصر : 1 - 3)

وفي ضوء الخطة السابقة أرسل الله النبي العربي (محمد بن عبد الله) صلوات الله وسلامه عليه للناس كافة :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

(سبأ : 28)

ولقد قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتبليغ رسالة القرآن كما أمره الله مبتدئاً بقومه العرب ثم من يليهم من الأمم ومن المشهور أنه أرسل وفوداً ورسائل إلى ملوك وأمراء عصره يدعوهم فيها إلى الإسلام، وعلى سبيل المثال كتب إلى هرقل إمبراطور الروم وكسرى ملك فارس، ولقد حمل الله في نفس الوقت أتباع النبي الخاتم مسؤولية تبليغ الرسالة من بعده لنفس الغاية وهي إتمام الحجة على الناس وهي نفس المهمة التي قام من أجلها الأنبياء، وبذلك انتدب الله الأمة الإسلامية لتكون في مقام الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتبذل أقصى الجهود في سبيل هذه المهمة كما ورد صراحة في آيات وأحاديث كثيرة، من ذلك قوله تعالى :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

(الحج : 78)

وفي الحديث الصحيح ورد أنه جمع الرسول مرة أصحابه فقال لهم : (إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني رحمكم الله ولا تختلفوا).

ولقد بذل الصحابة في حياة الرسول وبعد وفاته كل ما في وسعهم من أجل تبليغ الرسالة ونشر دين الهداية في كل أنحاء العالم، وقدموا في سبيل هذه المهمة العظيمة أموالهم وأرواحهم وبفضل جهاد الرسول وجهادهم دخل الناس في دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام وظهر على الأديان كلها.

(12) الفتح المبين

إنَّ أعظم فتح في تاريخ الإسلام تحقق عن طريق الإقناع والحوار العقلي، وذلك بعد إبرام معاهدة الحديبية بين الرسول وقريش، حين نزلت الآيات السابقة :

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2))

(الفتح : 1 - 2)

إن العبرة العظيمة في هذه الواقعة التاريخية المهمة هي إبراز نتيجة العمل الذي يقوم على السكينة والتقوى مقابل الحمية العصبية الجاهلية، فالرسول (صلى الله عليه وسلم) رفض الاستجابة لشتى استفزازات قريش وخطط في ضوء العوامل المستقبلية الحاسمة، لأنه كان يدرك أنَّ المقاومة القائمة على التعصب تنهار عندما تتاح لأسلحة الفطرة أن تعمل عملها في النفس البشرية، فعندما يخنقي الخوف والتعصب ينتصر الحوار العقلي لدرجة الفتح المبين ولقد صدق الصديق صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال : "ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية".

أنَّ فتح الحديبية يقدم لنا درساً هاماً وهو عدم نسيان الهدف الأصلي للرسالة حتى في أوج الصراع، وأنه لا بد من الالتزام بالمبدأ والمنهج الذي انطلقت منه الرسالة وسارت عليه وهو منهج الدعوة إلى الله.

الفتح المبين

إنَّ الداعية الرباني لا يبدأ عمله بالقتال أو بإصدار الفتاوي الفقهية على من حوله بالكفر أو الشرك، ولو بدأ عمله من هذه النقطة لما تقدم في طريقه خطوة واحدة، ولكان عمله هذا ذا مردود عكسي، ولكن الداعية الرباني يبدأ عمله من حيث بدأ الأنبياء، وهو البدء بالدعوة إلى الله، والنداء إلى الإيمان به، والتبشير بجنته والإنذار من عذابه، لقد بدأ كافة الرسل دعوتهم من هذا المنطلق، وكان هذا هو أيضاً منطلق خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم). فعندما بدأ الرسول دعوة الناس إلى الإسلام في مكة المكرمة كان وحيداً وكان جميع الناس في الطرف المقابل منه ولم يبدأ عمله بالحكم وإصدار الفتاوي

أواستعمال العنف، إنما بدأ بالدعوة وتأليف القلب، والنصح وتبليغ الحقائق بأنصع الأساليب، وعن طريق الدعوة دخل الناس في دين الله أفواجاً وسمعوا نداء الإيمان فاستجابوا لندائه :

(رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)

(آل عمران : 193)

ولقد شهد المؤرخون بالقوة الإيجابية للتسامح الإسلامي ودوره في جعل الشعوب تسرع لاعتناق الإسلام عن طريق الدعوة ونداء الإيمان فحسب، يقول الفرد كانتول سميت : "الإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد فأمنوا به".

(الإسلام في التاريخ الحديث. ط 4 (1966) ص : 106)

ويقول المؤرخ (توماس أرنولد): "يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، إن محمداً قد عقد حلفاً مع بعض القبائل العربية المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية".

(الدعوة إلى الإسلام ص : 48)

والواقع أن الدعوة ليس إظهاراً للنزعة العدوانية على البشر بل إن الدعوة إظهار لروح المحبة والتسامح والسلام، (والله يدعو إلى دار السلام)، والحقيقة أن الرسول كان المثل الأعلى للداعية ومنبع الرحمة المهداة للعالمين، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين). يروي ابن كثير قصة دعوة الرسول لأهل الطائف عندما لم يستجيبوا، ولما يؤس الرسول من ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان بالدماء والتجأ إلى بستان كان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه وتحت تأثير الموقف الذي كان فيه توجه الرسول بالدعاء إلى الله : "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له

الظلمات، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك". وثبت في الصحيحين "عن عائشة، قلت لرسول الله (صلي الله عليه وسلم): هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: "ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد قد بعثني الله إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً".

(البداية والنهاية 3 / 137)

ما معنى هذا؟ أن المغزى المراد أن الداعية عليه أن يستلهم هذا المنهج فلا يقطع الأمل أبداً من أجل هداية الناس إلى ربهم، وأن يفتح الحوار بكل حكمة مع الإنسان ليخاطب فطرته بصرف النظر عن دينه أو معتقده التقليدي، لأن خطاب الفطرة خطاب ناجح ما التزم الحكمة والموعظة الحسنة، أما الذين يظنون أن العنف هو أداة الدعوة فهم لم يدركوا بعد مقاصد الرسالة الإلهية والتي أَرادها الله أن تكون رحمة للعالمين، لا نقمة عليهم، إن من يظن أن العنف هو وسيلة الدعوة الناجحة عليه أن يراجع سورة الفتح وما تضمنته من دروس مهمة، إنَّ الله جعل من الخطوة التي اتخذها الرسول (صلي الله عليه وسلم) في الحديبية "فتحاً مبيناً" ليس في تاريخ الإسلام بل في تاريخ البشرية بأسرها، وما هي الخطوة التي اتخذها الرسول سوى إيقاف الحرب التي أشعلها التعصب ضد الحق، ولماذا أشعلها؟ إلا ليحول بين العقل والاستماع إلى الخطاب الإلهي، إن العنف هو أداة الشيطان المفضلة لأن يدفع بالحوار بين الداعية والمدعويين ليتوقف. إنَّ مجرد قبول المدعويين الحوار مع الرسل خسارة فادحة للشيطان وحده وكيف يمكن له أن يجعل هذا الحوار يتوقف إلا عن طريق إشعال نار التعصب والعنف الدموي، والدعاة إلى الله إذا كانوا على بصيرة يدركون جيداً لعبة الشيطان المدمرة، وهم بالتالي يحاولون بكل جهد أن يعيدوا الجو السلمي للحوار العقلي ولو كان على حساب عواطفهم، هذه هي جوهره

النظرة التي فتحت النصر أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديبية رغم اعتراض الصحابة على هذه الخطوة في البداية : يقول الإمام ابن شهاب الزهري تعليقاً على فتح الحديبية "ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّا كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلِّمْ أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر" قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف".

(سيرة ابن هشام : 2 / 322)

لقد أعطى الرسول (صلي الله عليه وسلم) كل ما أرادت قريش بما في ذلك فك الحصار الاقتصادي على تجارتها التي تمر على المدينة إلى الشام، ووافق أن يرد كل مسلم جديد يلجأ إلى الرسول من اضطهاد قريش، وأما من جاء من قبل الرسول فلا ترده إليه، وغير ذلك من المكاسب التي أخذتها قريش من الرسول، وأخذ الرسول في المقابل شيئاً واحداً وهو إيقاف الحرب لمدة عشرين سنوات فماذا كانت النتيجة ؟ هو حدوث أعظم فتح في تاريخ الإسلام كما شهد الأولون والآخرين، أخرج بن عساكر..يقول : ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربّه، والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد".

(حياة الصحابة 1 / 229)

ولهذا كان الصحابة يعدون "فتح الحديبية" هو الفتح وليس "فتح مكة" كما هو شائع عند معظم الناس.

إنّ في أجواء القتال والخصومة يعلو التعصب وتحتد الكراهية وينتشر الخوف فيمتنع بسبب هذا الناس من الاستماع إلى دعوة الحق، والفتح المبين في الحديبية إيقاف لهذا القتال الذي كان يدور بين قريش والرسول (صلي الله عليه وسلم) ذلك القتال الذي أشعله التعصب والجهل على رسالة الإسلام، وبعد جهود مستمرة من الرسول والصحابة للدفاع عن الرسالة رضيت قريش أخيراً أن تعقد هدنة سلمية مع الرسول لمدة عشرة سنوات تلتزم فيها بعدم إثارة الحرب ضد الرسول وكانت لا تعرف أنها قد أبرمت

معاهدة لإنهاء مقاومتها الظالمة للإسلام بصورة نهائية ليدخل جيش المسلمين مكة فاتحاً لها بدون قتال بعد سنتين فقط من إبرام المعاهدة.

وعندما دخلت جيوش المسلمين مكة ولاحت أول مرة فرصة مواتية للانتقام هتف زعيم الأنصار أو حامل رأيهم سعد بن عبادة قائلاً : "اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة" فأخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الراية منه وسلمها لابنه وهو يقول " اليوم يوم المرحمة اليوم تعظم الحرمة".

وقدّم الرسول (صلي الله عليه وسلم) أعظم درس في التسامح للبشرية بأسرها عندما قال لمن عاندوا وقاوموا الحق، وارتكبوا كلّ جريمة ضد الرسول (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه قال لهم : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ولم يجدوا ما يردون به على هذا الخلق العظيم إلا أن يدخلوا في دين الله أفواجا، إن الأخلاق الإيجابية التي كان الرسول (صلي الله عليه وسلم) ينتهجها هي التي فتحت قلوب أعدائه الأشرار ليتحولوا إلى أحناء له ومجاهدين في سبيل الله.

ومن المعاصرين الذين درسوا الحديبية بعمق المؤرخ محمد أحمد باشميل إذ يقول تعليقا على صلح الحديبية : "إنّ نجاح الرسول الأعظم (صلي الله عليه وسلم) في عقد صلح الحديبية مع قريش حقق للدعوة الإسلامية من المكاسب على كافة المستويات السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية ما لم تحققه له أية معركة خاضها النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام بالسيف والرمح والنبل ... إن صلح الحديبية هو حدث من أهم أحداث التاريخ، وبعده تحول مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب لصالح الإسلام والمسلمين حتى قضى قضاء تاماً على الشرك والوثنية وكانت الغلبة التامة للتوحيد والتوحيد فقط".

(صلح الحديبية – دار الفكر – بيروت ص : 14 – 19)

ويقول المفكر وحيد الدين خان تعليقا : "إنّ إبلاغ الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية وفي سبيل ذلك تهون التضحية بأي شيء، في السنة السادسة للهجرة (628) عقد النبي (صلي الله عليه وسلم) مع أهل مكة معاهدة الحديبية، وكان شروطها أن يسمح لأهل مكة بالمرور بالمدينة إلى مصر والشام والعراق بقصد التجارة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فكان النبي بإقرار هذا الشرط قد سمح علانية لأعداء الإسلام بممارسة النشاط

التجاري داخل حدود المنطقة الإسلامية، أنّ هذه المادة وغيرها من المواد الأخرى المتشابهة معها إنما وضعت بغرض منح هؤلاء الناس تسهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصفو بذلك ميدان الدعوة ويتمهد الطريق إليها".

(واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ص : 206 – 207)

إن الدعوة في جوهرها تحبيب هداية الله لخلقه ليفوزوا بالجنة وينجو من عذاب الله، يقول الرسول (صلي الله عليه وسلم) "إنما بعثتم ميسرين لا معسرين" ويقول "بشروا ولا تنفروا".

إن استعمال العنف ينفر البشر من دين الله، بينما استعمال الرفق واللين والتيسير يرغبهم في طاعة الخالق وهو الهدف النهائي من دعوة الرسول :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

(النساء : 64)

أما استعمال الغلظة والتعسير يؤدي إلى نتائج عكسية تماماً، ويأتي سؤال لماذا استعمل الرسول القوة مع أعدائه؟! إنّ الجواب على هذا السؤال أن الرسول (صلي الله عليه وسلم) لم يكن بادئاً أحداً بقتال وإنما استعمل القوة لضرورة الدفاع أو لضرورة وقتية وهي إزالة فتنة الشرك أو ما يسمى بلغة العصر رفع وإزالة (الاضطهاد بسبب العقيدة) ولما زالت هذه الضرورة لاستعمال القوة وزالت عقبة الشرك الجارح وصارت حرية الاختيار للدين بدون خوف وكان الدين لله زالت الضرورة لاستعمال القوة وسالم من سالمه وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية : كانت سيرته عليه الصلاة والسلام أن كل من هادنه من الكفار لم يقاتله، وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا وهذا متواتر من سيرته عليه السلام فهو لم يبدأ أحداً بقتال، ويقول إنّنا لا نكره أحداً على الإسلام ولو كان الكافر يقاتل حتى يسلم لكان في هذا أعظم الإكراه على الدين.

(أنظر رسالة القتال من مجموعة الرسائل النجدية ص : 116 وما بعدها)

وبسبب منهج التسامح والدعوة السلمية دخل الناس في دين الله أفواجا في كل بلد حتى وصل الدين إلى أقصى المعمورة وكان يقتضي على الدعاة أن يمضوا على طريق النبوة في الدعوة :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(النحل : 125)

لقد استسلمت المدينة المقدسة (مكة المكرمة) لعشرة آلاف صحابي دخلوها بدون عنف في السنة الثامنة للهجرة بعد سنتين من اتفاقية الحديبية، ولقد ألقى الرسول بعد فتح مكة خطبة تاريخية تبين شيئاً مهماً أن استعمال القوة ليس قاعدة بل استثناء، وإن الهدف الدائم هو فتح أبواب الرحمة الإلهية للإنسان والانتصار عليه بقوة التسامح والحب، فهذه القوة هي الوحيدة التي تستطيع أن تجعله يقبل على تغيير موقفه كلياً وأن تجعل القلوب المتحجرة تقطر رحمة، إن درس الحديبية قام في جوهره على قبول شروط الخصم وتغذية فرص السلام معه وتجويع الفرص التي تغذي الحرب، وهذا في الظاهر هزيمة حتى أن صحابة رسول الله الكريم لم يرضوا بذلك ويكفي أن نعلم أن أبا بكر الصديق الوحيد الذي وافق رسول الله (صلي الله عليه وسلم) منذ البداية على هذا الأمر مما يعني أنه من الصعوبة اكتشاف طريق الدعوة كعملية إيجابية أقوى من الحديد والنار، فلقد انتصر الإسلام في كل تاريخه بقوة الدعوة بالدرجة الأولى وكانت القوة المسلحة دائماً حالة استثنائية، ويكفي للتدليل على ذلك قول أحد الغربيين المنصفين في هذا الشأن : (إذا كانت عظمة الهدف، وبساطة الوسائل والنتائج العظيمة المحققة هي المقاييس الثلاثة لعبقريّة الأنبياء فمن الذي يستطيع أن يقارن محمد على الصعيد الإنساني، بأي رجل عظيم من كبار رجال العالم، إن أعظم الرجال لم يعدوا أن شهرخوا السلاح، وحركوا القوانين وأنشئوا الممالك أنهم لم يؤسسوا -عندما أسسوا شيئاً- سوى دول مادية انقرضت أحياناً قبل زوالهم".

(مع الأنبياء ترجمة صالح البنداق ص : 456)

(13) النظرية الربانية

إن جوهر النظرية الربانية هو أن ترى الأشياء كما هي ولهذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو الله ويقول: "وأرنا الأشياء كما هي" (مشكاة المصابيح) والنظرية الربانية هي أساس التفكير السليم، ومن كانت لديه هذه النظرية يرى الحقيقة وراء المظاهر البادية للناس، فيرى أن حقيقة التصرف والمشئنة والملك والقدرة والقوة والحكم كله لله وحده في هذا الكون، ولا يرى أن هناك قوة عظيمة غير قوة الله فلا يعطي للبشر أكثر من حجمهم الحقيقي. وهذا هو جوهر التوحيد الذي يجعله بمنأى من الخوف والارتياح، فلا تتسلط عليه فكرة أن العالم يتأمر عليه، أو يسعى للقضاء على ما يراه عزيزاً لديه من دين أو فكر ولا يعني هذا أن العالم يخلو من التأمر أو يخلو من الأعداء، ولكن المطلوب هو أن لا يقهره هذا الخوف حتى يسيطر على عقله، ويدفعه بالتالي إلى فقدان النظرية الموضوعية والقدرة على الحكم الصحيح على ما حوله من الأشياء وعندما يضع الحكم الصحيح يتردى الإنسان في حضيض الأعمال الطائشة وردود الفعل الغامضة وتسيطر عليه أفكار جنونية ليس لها صلة بكتاب الله وتعاليم رسوله وربما يقضي على نفسه بالهلاك في الدنيا والآخرة. وهو يحسب أنه يحسن صنعاً والحقيقة أن عقلية الداعية لا يمكن أن تكون على منوال هذه العقلية، ونعني به الداعية الربانية الذي يقوم فكره على المنهج الإيجابي والنظرية الموضوعية، وأكمل مثال على ذلك يتمثل في حياة وسيرة الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم).

لقد بدأ الرسول الدعوة في مكة المكرمة في جو من الحصار الفكري والاضطهاد بلغ حد التأمر على قتله حتى جاء أمر الله للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة، وكانت الفترة التي قضاها في مكة قبل الهجرة سجلاً حافلاً بالمؤامرات، وفي طريقه إلى المدينة تعقبه أعداؤه وطلبوه حياً أو ميتاً مقابل مائة ناقة.

كل تلك الأحداث كانت حقيقية، وليست وهمية أو افتراضية، ولكن أنظر كيف كان رد فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ذلك في أول مقالة أو خطبة قالها في المدينة عند وصوله سوف يدهشك أن هذا الرسول الكريم لم يشير إلى أي شيء من الأهوال التي واجهها وأنجاه الله منها وكأنه جاء من السماء، ولم يعرف شيئاً عن الظلم والاضطهاد والعدوان والتأمر بل كان كل حديثه عن الحقيقة الأبدية حقيقة الآخرة الجنة والنار.

ولو أحاطت برجال العالم الإسلامي الذين يتصدون لقيادة الدعوة في هذا الوقت نفس الظروف التي أحاطت بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وواجهوا مثل هذه الشدائد التي واجهها مع أصحابه كيف ستكون حينئذ مقاتلتهم وخطبتهم ؟ سوف تكون مقاتلتهم أو حديثهم ليس عن الآخرة والأبدية بل عن الظلم والعدوان ومؤامرات الأعداء ومكائدهم والنقمة الجنونية ضدهم. مع أنهم في الحقيقة في كثير من الحالات المعروفة هم الذين يبدؤون بالعدوان عن طريق سلوكهم السبيل الجائر لإقامة الدين، ولو بدؤوا بالسبيل العادل في عصر حرية العبادة والفكر لنجحوا ولما وجدوا هذا الاضطهاد. فشتان بين نظرة الرسول الربانية ونظرتهم الانفعالية، وشتان بين مقالة الرسول وخطبه وبين مقالاتهم وخطبهم. وفيما يلي أول خطبة خطبها الرسول في المدينة بعد أن قام وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال (صلى الله عليه وسلم) : "أما بعد. أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمنّ والله ليصعقنّ أحكم ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولي فبلغك وأنتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر أمامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق ثمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته".

(البداية والنهاية لابن كثير)

ولا تستطيع إدراك هذه الخطبة حتى تدرك من هو المتحدث، وماذا جرى له قبل هذا الحديث. كان رسول الله عليه السلام في مكة المكرمة، وقد هاجر حديثاً منها بعد أن قضى فيها ثلاث عشرة سنة يواجه الأذى والاضطهاد من قومه حتى وصل الأمر إلى تدبير مؤامرة لاغتياله أو سجنه، فلما وصل المدينة سالماً كانت هذه أول خطبة خطبها، ولكن الأمر العجيب والمدهش أنك لا تجد أية إشارة إلى الأحداث السابقة التي مرت عليه، وكأنه عليه السلام جاء من السماء، وقام تحدث. وكان حديثه - كما ترى - يدور حول الآخرة والاستعداد لها وهي الحقيقة الأبدية التي كانت تشغله دائماً. بل هي أساس وجوه دعوته ودعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ولو تمنعت جيداً في الخطبة وهي في وسط مسلم (المدينة)، وتذكرت أول خطبة - في مكة - وهي في وسط غير مسلم لوجدت تشابهاً كاملاً. فعندما صعد على جبل الصفا

ونادى قومه، قال لهم بصوت منذر : "أنقذوا أنفسكم من النار" وفي أول خطبة بالمدينة يقول : "فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق ثمرة فليفعل".

فما هو يا ترى - الفارق الكبير بين عقلية هؤلاء - مفكري العالم الإسلامي - وعقلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إن الإنسان يتكلم دائماً عن الذي يعتبره أكبر من كل شيء يشغله أو يهيمه، ولقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة يعيشون ويتحدثون عن أهوال الآخرة، ولهذا السبب نسوا الظلم والخسارة الدنيوية، ولو كان الذي يشغلهم مكانتهم الشخصية كان حديثهم عن هذه المكانة ولكن لا نجد لذلك ذكراً، فهذا من أدب الدعوة، وصفات الداعية، وإذا أردت أن تكون داعية إلى الله فلا بد أن تكون لك مثل هذه النفسية الإيجابية، ولا يكن عندك رد الفعل، ويجب أن تنسى كل شيء، وأن تتحمل الخسارة والظلم، ولو كان ذلك على حساب نفسك أي أن ترضى بإنهاء النزاع من طرف واحد، كما نجد ذلك في السيرة : حين هاجر سيدنا صهيب الرومي إلى المدينة وكان صاحب ثروة، فأرادت قريش أن تمنعه من الهجرة فطلب منهم أن يتركوه مقابل أن يعطيهم ثروته، فقبلوا ذلك، وهاجر صهيب إلى المدينة، وحين وصل المدينة، علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما فعل صهيب، فقال: "ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى".

وهكذا أنهى صهيب النزاع بينه وبين قريش على حسابه ... وهذا معنى إنهاء النزاع من جانب واحد، ولو تمسك صهيب بثروته لما انتهى النزاع، ولكن الداعية الحقيقي يرضى بمثل ما رضى به صهيب، ويتحمل دائماً - بصبر عظيم - الخسارة من جانبه.

إن الذي يعيش حياته في تذكر الحقائق العليا، كعظمة الله تعالى، وأهوال الآخرة، فسوف يعتبر ما يواجهه في الدنيا من أهوال وشدائد لا يعني شيئاً.

وهكذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة يعيشون في ذكر عظمة الله، وأهوال الآخرة، ولعل الخطبة التي خطبها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة خير مثل على ذلك، والمفكرون المسلمون يقرؤون هذه الخطبة بدون تمعن وتفكر في ظروفها. وبدون ربط بينها وبين الظروف التي كان يعيشها قائل هذه الخطبة، فهم يقرؤونها مجردة فلا يتفهمون معانيها كما ينبغي. ولو عرفوا كيف يقرؤون السيرة، ويتدبرونها

لأدركوا أدب الدعوة الحقيقي ولكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالنسبة لهم أسوة حسنة كما أراد الله.

إن الداعية الصادق هو الذي يتحرك ويتصرف في كل أموره بدافع الآخرة، ومن كانت الآخرة غايته فقد سلك طريق الأنبياء كما بين الله تعالى في كتابه الكريم :
(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارَ (46))

(ص : 45 - 46)

يقول المفسر البيضاوي تعقيباً حول هذه الآية :

"جعلناهم خالصين لنا بخصلة لا شوب فيها هي ذكرى الدار تذكرهم للآخرة دائماً فإن إخلاصهم في الطاعة بسببها وذلك لأن مطمع نظرهم فيما يأتون به ويذرون جوار الله تعالى والفوز ببقائه وذلك في الآخرة وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقية".
(البيضاوي / 604)

ومن جعلوا الآخرة مناط سعيهم صارت الدنيا عندهم ذات قيمة تبعاً للهدف الأخرى وبالتالي خلصت لهم الطاعة وصاروا يعملون بدافع الفوز بالجنة والنجاة من النار فأدركوا حقيقة عظيمة هي العيش في رحاب الله، وتذكر عظمتة فوجوده هو الوجود الحق، ومناجاته وتمجيده هو أعلى قيمة من كل شيء في دنياهم، وبذلك اطمأنت نفوسهم:
(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(الرعد : 28)

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

(آل عمران : 79)

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الربانية هي نتيجة العلم بالكتاب ودراسته و(رَبَّانِيَّيْنِ) جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب وقال الطبري : معناه "كونوا حكماء علماء".

(الطبري / 6 / 540)

والربانية في تحليلها النهائي هي أن يكون للإنسان المستوى الرباني في النظر للأمور، فالرباني من ينظر بنظرة الله، وهي رؤية الشيء كما هو، ولقد ورد في الحديث الشريف: "اللهم أرنا الأشياء كما هي" وعامة الناس ينظرون للأمور في مستواهم الشخصي والمصلحي، أي أنهم يتأثرون فيرون الأشياء داخل حجب وغشاوات، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يرى الأشياء من خلال حجب أو غشاوات والداعية يجتهد من أجل أن تكون له مثل هذه النظرة، وهذه الدرجة تتطلب أن يكون الداعية على مستوى عال من الإيمان وهو ما يسمى بالإيمان الاكتشافي، وفي عبارة أخرى الإيمان الذي يقوم على أساس المعرفة والإدراك الشخصي لا مجرد المعرفة السماعية التي يتلقاها المرء من المحيط، والداعية الرباني يقوم فكره على التأثير بالحقيقة لا على مجرد رد الفعل وهذا المعيار هو معيار المعرفة والنظرة الربانية. وفي تعبير آخر الإيمان الشعوري الذي يأتي نتيجة اكتشاف الله وعظمته في كل شيء وطريق ذلك التدبر في كتاب الله والتأمل في آياته إن القرآن كتاب الحقائق الأبدية، وهو عنوان آخر لما يسمى بـ "النبأ العظيم" فهو يحتوي على أهم نبأ يقتضي على الإنسان الانتباه لسماعه ومعرفته، وهو نبأ الآخرة، وأعظم مأساة يعيشها الإنسان في هذه الحياة، هو غفلته عن الآخرة، وانشغاله بالعلم الظاهري :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(الروم : 7)

إن الانشغال بالمستوى الظاهري من العلم يولد في نفسية الإنسان الإقبال على الحياة الدنيا وتفسير كل أحداثها في نطاقها المحدود، وهو لا يعدو القيمة الظاهرية فيكون للإنسان فكر سطحي ولو كان ذلك الفكر يستخدم ألفاظ الدين، فليس العبرة بحضور هذه الألفاظ على اللسان ولكن العبرة الحقيقية في ظهور الخشية في قلب الإنسان وملازمتها لعقله. إن هذا وحده يجعل لمعنى الآخرة حقيقة في نفس العبد فتكون له بالتالي وجهة أخروية، ومن ثم يصبح تقويمه للأحداث في ضوء الحقيقة الأخروية.

والفرق الحقيقي بين النظرة الربانية والنظرة التي تستغرق معظم الناس هو فرق في الحقيقة ليس في الشكل واللفظ :

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(العنكبوت : 29)

إن أخلاق الداعية ينبغي أن تكون على مستوى عال، ولا يكون ذلك إلا عن طريق إيمان عظيم، فالداعية لكي يتحمل الخسارة يتطلب صبراً، وبدون الصبر لا يمكن أن

ينجح الداعية في دعوته، ولهذا نجد الداعية الحقيقي يتحمل الخسارة الدنيوية مقابل تأدية رسالته وليس المقصود بالخسارة التي تأتي نتيجة حماقته أو تأتي ثمناً لرد فعل ولعدم صبره ولكن التضحية المقصودة هي بالعكس تماماً ناجمة من قدرته على تحمل الحياة في عالم مليء بالتناقضات حتى أن الكافرين يجدون فرصة فيها طبقاً لمشينة الله الذي جعل الحياة اختباراً : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الملك : 2)

لأن أصل الحياة وسرها هو الابتلاء وبالتالي فإن سنة الأنبياء هي الصبر والصبر ليس موقفاً سلبياً بل هو موقف إيجابي من جميع الوجوه إنما الانفعال والطيش والاستعجال أو عدم تحمل الأذى ورد الفعل كلها علامات على فقدان القدرة على ضبط النفس وذلك خلاف سنة الأنبياء :

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (إبراهيم : 12)

وهي السنة التي أمر الله بها خاتم الرسل ومن بعده أتباعه أن يتحلوا بها :

- 1- (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (الأحقاف : 35)
- 2- (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ □ (النحل : 127)

3- (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35))

(الأنعام : 33 - 35)

(14) الداعية المثالي

يقدم لنا تاريخ الإسلام أمثلة ونماذج غنية للأسلوب الصحيح في العمل الإسلامي في كل وقت والحقيقة أن أعظم مثل وأسوة هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم أصحابه الأبرار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وأهم صفة كانوا يمتازون بها وضوح الهدف ووضوح المنهج وهذه هي الصفة التي فقدناها في العصور المتأخرة، لقد فقدنا الهدف الأساسي للرسالة، الدعوة : "العمل على إنقاذ الناس من النار وهدايتهم إلى ربهم عن طريق دعوة التوحيد الخالص". وفقدنا منهج الهداية الذي يقتضي على الداعية أن يسير فيه – فقدنا روح النصيحة والشفقة والتسامح والصبر والإعراض عن الفتن والتركيز على الهدف، فقدنا روح النبوة في الدعوة الذي جعله الله لنا أسوة حسنة :
(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

(الأحزاب : 21)

إن الذين ساروا على منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) غيروا تاريخ المجتمعات التي عاشوا فيها وكانوا رحمة لتلك المجتمعات، ومن الأمثلة البارزة في التأريخ الإسلامي يقدم لنا وحيد الدين خان نموذج (سيد علي همذاني) الداعية الذي سار على منهج الهداية الربانية للدعوة فوفق أعظم توفيق وفي نفس الوقت يقدم وحيد الدين النموذج العصري للعمل الإسلامي المطلوب في مقالته (على طريق تاريخ جديد) وهي نموذج دولي جديد للعمل الإسلامي اشتركت فيه دولتان عربيتان في مجال (نشر الإسلام ونصرة المسلمين).

ملحق (1) - سيد علي همداني

هناك مثال على المنهج الإسلامي، نجده في تاريخ كشمير، وكشمير منطقة مشهورة بجمال طبيعتها، إلا أن فيها أجمل وأعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الإسلامي الذي نجده في حياة سيد علي همداني (1314 - 1384 م)

وقد اشتهر في كشمير باسم "أمير كبير" وقد ترك بسيرته نموذجاً قابلاً للاحتذاء، قلّ أن نجد له مثيلاً في القرون الحالية، فكشمير هي كالجنة بطبيعتها الخلابة وهي بـ "أمير كبير" قدمت منهجاً للدعوة الإسلامية، وهذا المنهج أعظم كثيراً من جناتها، وقد قال محمد إقبال (1877 - 1938م) عن الأمير همداني :

"إن في يده منهج بناء الأمم". وهذا الرأي صحيح مائة بالمائة. فكشمير المسلمة اليوم إنما هي ثمرة جهاده، الذي لم يتبع أسلوب "السيف والرمح" أو "التصادم مع الزمان" بل اتبع فيه أسلوب الهداية غير المحبب لدى معظم القادة المسلمين في الوقت الحاضر، لقد حقق الأمير همداني النجاح والفلاح بعد أن ترك "السيف والرمح" وكان أعظم درس قدمه في حياته هو قوله : "إن أردتم بقاء الإسلام حياً فادفنوا إلى الأبد فكر التصارع والتناحر، وتجنبوا تماماً إثارة الصراعات المذهبية والسياسية، وبعدها ستتالون نصر الله وتوفيقه، وستتحقق للإسلام العزة والرفعة ويعز الله المسلمين بإسلامهم".

كان الأمير سيد علي همداني - من سكان إيران - معاصراً لتيمور لنك (1335 - 1405 م) وقد غضب عليه شاه تيمور لسبب ما، وأصدر حكماً بنفيه من إيران، ولم يكن أمام الأمير همداني من سبيل إلا إعلان الجهاد ضد تيمور لنك، والعمل على إقامة حكومة صالحة في إيران، حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد، ولكن "أمير كبير" ابتعد - في أسلوبه - عن التصادم السياسي، بل أخذ رفاهه الأربعين وخرج من وطنه "همدان" ووصل بهذه القافلة إلى كشمير سنة 871 هـ. ماراً بأفغانستان، وكان قد زار كشمير للسياسة من قبل في سنة 762 هـ.

ووصل إلى كشمير فواتته فرصة للإعلان عن حركة سياسية مناهضة للشاه تيمور وكان هناك في زمان تيمور من يكرهونه لأسباب سياسية، كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة التيمورية، إلا أنه تجنب - لأقصى حد - أي نوع من هذا العمل، وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة، وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمي ذلك الوقت، ومع أن أمير كشمير كان من

أسرة مسلمة إلا أن مسلمي كشمير كانوا يمثلون أقلية فقيرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع نذور للمعابد الهندوكية، وكان يمكن للأمير همذاني أن يقود حركة الزعامة التي تهدف إلى المطالبة بحقوقهم، ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية.

وهكذا اتجه "همذاني" إلى الطريق الذي ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم "الإنسانية" وأن يقدم عظاته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانة محببة لدى الفريقين المتصارعين في كشمير لأن الفريقين أعجبوا به، فقد راح يعمل على إيجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل وبطريقة لا يشعر فيها أي من الفريقين أنه خاضع لضغط ما.

وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب همذاني والأسلوب السياسي – إن النوع السياسي من الحركات مهما بدا ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب والشعارات، فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل، بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب ليست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية، وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه الناس إلى قضايا الآخرة.

وبرنامج "همذاني" لم يكن قائماً على عملية رد فعل مضاد للشاه تيمور أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتية لمسلمي كشمير الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت حاكم مسلم هو "سلطان قطب الدين" وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات الفاسدة ويرتكب الكثير من الأعمال السيئة، لكن همذاني أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والإرشاد اهتمت بضرورة إصلاح الأحوال. وهكذا لم يؤسس همذاني حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن الحكم ووضع حاكم صالح مكانه، بل ارتفع "همذاني" فوق هذه العوامل وأقام برنامجه الإصلاحية على أساس فكر ثابت، ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق فقد كان برنامجه عملياً، لقد انتشر هو ومن معه من إخوانه في نواحي منطقة كشمير وبدؤوا يبلغون الإسلام لأهالي هذه المناطق، تعلموا لغة الكشميريين وتأقلموا مع ظروف المنطقة، وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم.

وهكذا عاش "أمير كبير" حياة الصبر والتحمل، وقام بحركته الإصلاحية في صمت وهدوء.

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بدأ على يد محمد بن القاسم الثقفي (66-96 هـ) فإن انتشار الإسلام بدأ بصورة واضحة في كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني)، وقبل سبعمائة سنة كانت كشمير إمارة خاضعة للأمير بوذي يدعى (ريجن شاه) وقد أسلم هذا الأمير البوذي على يد سيد بلبل شاه، ولما كان الناس – في ذلك الزمان – على دين ملوكهم، أسلم عدد من الكشميريين، وكان بلبل شاه تابعاً للمذهب الحنفي، وهكذا اتبع الكشميريون آنذاك المذهب الحنفي في عباداتهم، وحين قدم (الأمير سيد عي همذاني) إلى كشمير وبدأ الناس يسلمون على يديه ظهرت مسألة خلافة تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم، فقد كان (همذاني) نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمي كشمير على مذهب أبي حنيفة !!

فإذا ما قام (همذاني) بتلقي هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التي أسلمت على يده، ثم بقية مسلمي كشمير.

فقد كان الخلاف بين الحنيفة والشافعية يتعدى انفصال مدارسهما ومساجدهما إلى أصل عملية التبليغ في محاولة كلٍّ منهما إثبات صحة وأفضلية مذهبه الفقهي، فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين منفصلتين، وبدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فستضيع فيما بينهم تلك القوة التي كان يجب أن تبذل في سبيل نشر كلمة "الحق" وتمضي الأجيال ويستمر الاختلاف ولا ينتهي أبداً.

ولهذا قام (الأمير سيد على همذاني) بتبليغ أسس الدين فقط، ولم يثر أبداً أي بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية، ولقد احتاط حتى أنه أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعي، وكان يصلي مع المسلمين جميعاً بالطريقة الحنفية، وكان ينصح زملاءه بأداء العبادات طبقاً للمذهب الحنفي، وكانت النتيجة أنه وجد فرصاً مناسبة ليؤدي – دون نزاعات جانبية – رسالته في كشمير، ففاز بتعاون جميع الطبقات، وظل في أمن، بعيداً عن الدخول في متاهات القضايا الفرعية، وقد نجح في نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن، ولو قام (أمير كبير) بإثارة جدل حول المذهب الحنفي والمذهب الشافعي لما حالفه النجاح في تلك المنطقة، ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين متصارعين.

وليس معنى هذا أن الناس الذين يمضون على هذا لا ينشأ بينهم اختلاف، وأحوال الأمير "همذاني" نفسه تدل على هذا. فحين كان في الثالثة والسبعين قدم له بعض الأشرار من منطقة (بكهلي) بكشمير، السم فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف إنما يكون نتيجة لأسباب شخصية. تهدف إلى الإضرار الشخصي بالداعية فقط، بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير دينية إلى مسألة دينية يعد جرمًا كبيراً، إذ يسلب الجماعة المسلمة جميع النعم التي قدرها الله لها كجماعة تحمل كتابه وتستمسك بصراطه المستقيم.

وحياة (الأمير همذاني) إنما هي مثال عملي ناجح تماماً لأسلوب العمل الإسلامي، فالشيء الذي ركز عليه كفاحه ونشاطه من أجل الدعوة كان قضية (التوحيد والأخوة)، ولم يثر على الإطلاق أية قضايا أخرى كالقضايا السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية، فقد كان يركز أساساً على أصل الدين، وليس على فروعيات الدين. وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور "خارجة" عن الدين، أو أنه كان يعدها أموراً غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك، فقد كان يعرف أهمية كل منها، واتبع كل شيء اتباعاً عملياً إلا أن الشيء الذي ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس "السبل المتفرقة".

كان (الأمير همذاني) يصلي مراعيًا جميع شروط الأحكام الفقهية، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو إثبات خطأ مذهب ما وترجيح مذهب آخر، وقد اتخذ - أيضاً - منهجاً اقتصادياً، وإلا فكيف يمكنه ورفاقه أن يعيشوا، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركته، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا أنه كان يتبع سياسة عميقة وراسخة ولو لم يتبع هذا الأسلوب لما كانت لكشمير اليوم هذه المكانة، فهي الولاية الوحيدة بالهند التي بها وزارة مسلمة، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى، وهذه الهيبة السياسية التي تتمتع بها كشمير إنما هي نتيجة لدعوة (الأمير همذاني).

ومع أنه لم يمض حياته كلها على أي برنامج سياسي بالمعنى المعروف، ولم يعترف به أحد "كقائد سياسي" ومع أنه لم يسع وراء شيء كهذا، وقام فقط بالاستمساك بالحقيقة المطلقة. فإن كل الأشياء قد سعت إليه بعد ذلك، ونال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كشمير !!

والخلاصة أن أهمية الدين تكمن أساساً في نجاة الإنسان كلية من الشرك، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط، وهكذا تدين له الحياة بأكملها. ومن الضروري لنا أن نؤكد قبل كل شيء على هذا الأمر، وأن نجعل منه أساساً للدعوة والتبليغ، وبعدها يلزم إتباع طريقة ما – تتطابق مع الظروف – فيما يتعلق بمقتضات الدينية المطلوبة في المعاملات التفصيلية، وبالتالي لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساساً لحركة الدعوة، فالإنسان حين يتخذ من مسألة ما أساساً لحركة الدعوة فهو إنما يجعل للمسألة الفرعية نفس مكانة المسألة الأساسية، ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يصيب نظام الدين بالاضطراب، ويدخل عليه الفوضى.

فإذا أعجبك مذهب فقهي خاص أو رأى ما فلتتخذه مذهباً أو رأياً لك، ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجداً أو مدرسة، وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك ما تشاء، ولكن لا تجعلها أساساً أو ميزاناً إسلامياً تقيس به الآخرين، فإذا أقام حاكم مسلم نظاماً على أساس ما ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو أي نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد وإذا كانت لديك بصيرة، ورأيت حقوق أمتك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فاغرس لدى أفراد الأمة العاطفة التي تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بقوة وأمانة، ومن حل قضيتهم، ولكن لا تثر فيضانات الاحتجاجات والمطالب ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة، فمثل هذا النوع من السلوك إنما هو ابتعاد عن سبيل الدين الواحد، وهو سعى وراء السبل المتفرقة ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهي تنتشر في الواقع الفساد فقط، إذ هي لا تبعد الإنسان عن عبادة الله الحقيقية فحسب، بل تصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الجماعات، والله لا يحب بث الفرقة بين أهل أمته، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله إن فعلوا هذا أن ينالوه مرة ثانية، كما أن الفرقة لا يمكن أن تعيد للأمة وحدتها السابقة.

(أنظر واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ص : 110 – 114)

ملحق (2) - على طريق تاريخ جديد

كان إعداد جيش بقيادة أسامة بن زيد لمواجهة عدوان دولة الروم على المسلمين موضع اهتمام بالغ لدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته، حتى أنه ظل يذكره في لحظاته الأخيرة، ويصدر التعليمات اللازمة لإرسال جيش المسلمين لمحاربة الروم.

وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أبدى خليفته أبو بكر الصديق - اهتماماً شديداً بالأمر، فكان أول ما قام به بعد توليه الخلافة أن أصدر أوامره إلى جيش أسامة بن زيد للزحف إلى منطقة الشام التي كان يسيطر عليها الروم. وذلك رغم المعارضة العامة لاتخاذ مثل هذه الخطوة . وقد رافق أبوبكر الصديق الجيش الصديق الاسلامي مشياً على قدميه مسافة بعيدة للإعراب عن أهميته لديه.

ولكن ما السبب في هذا الاهتمام الزائد بالأمر ؟

الواقع أنه كان يستهدف تحويل الطموحات الدينية للعرب من الداخل إلى الخارج، لأنه لو لم تتخذ مثل هذه الخطوة في حينها لكان هناك خطر شديد قد يؤدي بالحماس العربي الجارف إلى تصادم داخلي واقتتال وتناحر فيما بين العرب، وكان حالهم على حد وصف شاعر جاهلي قديم :

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

لقد اعتدى الروم على الحكومة الإسلامية بالمدينة المنورة مما أدى إلى غزوة مؤتة وقد استشهد فيها زيد والد أسامة مع عدد كبير من المسلمين، فبادر الرسول (صلى الله عليه وسلم) باتخاذ إجراءات عسكرية ضد دولة الروم، وأمر بإعداد جيش من الصحابة تحت قيادة أسامة بن زيد. وهكذا غير الرسول (صلى الله عليه وسلم) مجرى التحرك العربي من الداخل إلى الخارج.

إننا نواجه الآن وضعاً مماثلاً ... لقد انبعث الوعي الإسلامي لدى الجيل الجديد من المسلمين نتيجة لعوامل عديدة. وكان هذا الجيل على استعداد لتقديم تضحيات كبرى في سبيل الإسلام، إنها مرحلة حاسمة كانت تحتم تحويل هذا الحماس الإسلامي والخطوات

العملية الناجمة عنه، من الداخل إلى الخارج، إلا أن هذا الأمر لم يتحقق في حينه. لقد تأثر المسلمون بالتفسيرات السياسية المتطرفة للإسلام، واحتدم الصراع بينهم وبين الأنظمة السياسية في بلادهم.

إن القوة التي كان من الممكن استخدامها لنشر الإسلام في الخارج بدأت تنهك قواها ... هذا الوضع يسود الآن كافة البلدان الإسلامية تقريباً.

إن هذا الوضع يحتم علينا بأن نسعى لخلق وعي جديد لدى الجيل الإسلامي الجديد لتحقيق غاية الحياة الأسمى، ونذكرهم بأن العمل لرفع راية الإسلام ونشره في العالم الواسع هو المجال لاستخدام المواهب والطاقات التي يتمتعون بها، لأن الصراع السياسي المستمر مع الأنظمة الحاكمة في بلدانهم لا يورث إلا الخراب والضياع للأجيال القادمة.

إن المسلمين في عصرنا الحاضر في حاجة ماسة إلى تحديد غاية واضحة لمجال أعمالهم وجهودهم. إن الإنسان يجد أمامه طرقاً عديدة ... طريقاً يؤدي إلى الضياع وآخر إذا سلكه تحققت غايته. إن الاختبار الحقيقي للإنسان هو أن يختار طريقاً صحيحاً بين عدة طرق مفتوحة أمامه. إن الإنسان الذي يحمل غايته يجد وجهة صحيحة لجهوده وأعماله، أما الذي لا تكون له غاية يفشل في أن يختار اتجاهها صحيحاً.

إن أكبر ما فقده المسلمون في العصر الحاضر هو تحديد غاية واضحة. لقد كان هناك هدفان أمام المسلمين في العصر الحاضر ... هدف سياسي، وهدف بنائي، إن الهدف السياسي يعني الدخول في الصراع مع الأنظمة السياسية الحاكمة باعتبارها مسئولة عن كافة المساوئ والفساد.

أما الهدف البنائي فيقتضي خلافاً لذلك - سواء أكانت الغلبة السياسية لهذا الفريق أو ذاك - أن توجه جميع الجهود إلى المجالات التي ما زالت مفتوحة أمامنا، وذلك كالعمل للدعوة إلى الإسلام في الجماعات غير الإسلامية، وتنقيف المسلمين، وتوحيد صفوفهم وإعداد كتب إسلامية بأسلوب عصري، وما إلى ذلك ... هذا يبدو في ظاهره الاقتناع بـ "القليل" إلا أن من رضي بالقليل يكسب الكثير، ومن يطمع في الكثير في البداية فلا يحظى لا بالكثير ولا بالقليل.

إن أكبر الأخطاء التي وقع فيها المسلمون في عصرنا الحاضر وخاصة المثقفون منهم أن أغلبهم اتجه لتحقيق الهدف السياسي، وكان ذلك مثل إقامة بناء بدون أساس

وكان من الطبيعي أن تذهب جهودهم سدى، إنه بالرغم من الكفاح السياسي الصاخب منذ قرن تقريباً نجد أن مسيرة الأمة الإسلامية لم تتقدم خطوة، ولم يكن من نصيبها سوى توضيحات غير مجدية. إن هذا الواقع لدليل تجريبي بأن الهدف المذكور لم يكن صحيحاً ويجب عدم تكرار هذا الخطأ والعمل لشق طريق للجيل الإسلامي الجديد ليصل إلى غايته الحقيقية، حتى لا يضيع في صحاري التوضيحات السياسية القاحلة.

لا شك أن الدعوة الإسلامية أهم خطوة على طريق الغاية الصحيحة، وأعتقد أن أفضل أسلوب للاستفادة من الجيل الإسلامي الجديد المتحمس للعمل أن نوجهه إلى العمل من أجل الدعوة الإسلامية ...

إن عمل الدعوة الإسلامية يتمتع بميزتين في آن واحد :

أولاً : إنه عمل مطلوب من الله سبحانه وتعالى وبه يستحق المسلمون النصرة الإلهية.

ثانياً : إنه يخلق وعياً جديداً للغاية في الجيل الإسلامي الجديد، ويمكنه من أن يوجه جهودته إلى الخارج ولا يضيع طاقاته ومواهبه في الصراع السياسي الداخلي .

إن الابتعاد عن سياسة الصدام والصراع، والعمل في ميادين البناء يأتي بنتائج مذهلة، وأوضح مثال لذلك ما يقوم به المركز الإسلامي بكيغالي في رواندا ... وما حققه هذا المركز من مكتسبات عظيمة يقدم دليلاً على أن الشباب المسلم المتحمس للعمل يمكن استخدامه في مجالات البناء المستمر لخلق مستقبل جديد للإسلام.

في شهر سبتمبر من العام الماضي (1982م) أقمت لمدة أسبوعين بالمركز الإسلامي بكيغالي. ووجدت أن هذا المركز يقوم - بعيداً عن أسلوب العمل السياسي - بأعمال تستحق التقدير، وذلك تحت إشراف عدد من الشباب العرب إن هذا المركز بالإضافة إلى ما يقدمه من خدمات اجتماعية يقوم بنشر الإسلام في غير المسلمين، ولا شك أنه حقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال.

إنني أعتقد أن أكبر عمل نقوم به هو أن تعمم هذه التجربة على نطاق واسع، وذلك لإبعاد الشباب المسلم عن النشاطات السلبية وتوجيههم إلى مجالات العمل البناء المثمر..

إلا أن تحقيق هذا الهدف يتطلب جهداً وعملاً مخططاً.

إنني أقترح أن يتم إنشاء منظمة دائمة .. وذلك بهدف تدريب الجيل الإسلامي الجديد للقيام بأعمال بناءة ومثمرة ويمكن لهذه المنظمة أن تقوم بعملين في نفس الوقت ..

أولاً : إنشاء شعبة لتأليف ونشر الكتب الإسلامية بأسلوب علمي هادف تقوم بالتعريف بالإسلام الحقيقي ولا تستخدم التعبيرات المتطرفة وذلك بهدف إبعاد الجيل الإسلامي الجديد عن سياسة الصدام والصراع وحمله على التفكير بأسلوب بناء.

ثانياً : إنشاء معهد للتربية لإعداد نخبة من الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم وفق منهج تربوي خاص في دورات تدريبية قصيرة.

لقد دعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه أن لا تستعمل طاقات المسلمين ضد بعضهم البعض ولكن دعاؤه هذا لم يقبل، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "سألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها" ويتضح من ذلك أن أكبر خطر يهدد المسلمين هو أن ينشب الصراع بينهم تحت شعار أو آخر ولذلك حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) حماس المسلمين للمبادرة والعمل على شعوب غير إسلامية، لاستخدام طاقاتهم في إصلاح هذه الشعوب، ولتجنب الصراع الداخلي. وكانت نتيجة ذلك أن الإسلام احتل مكانه البارز على الصعيد العالمي وصنع تاريخاً جديداً للعالم.

إن قافلة الإسلام تقف اليوم على منعطف الطريق ذاته، والذي بإمكانه أن يكون سبباً لصنع تاريخ جديد للإسلام شريطة أن ننجح في إبعاد هذه القافلة عن جبهة الصراع الداخلي وتغيير اتجاهها إلى الميدان الخارجي والداخلي البناء.

(نقلاً عن مجلة الدعوة - عدد 925 - 16 يناير 1984 (السعودية))

(البداية الصحيحة)

(من وجد البداية وجد النهاية)

عندما ضاعت البداية الصحيحة للعمل الإسلامي ضاعت كل النتائج المأمولة، وفي هذه المرحلة التي وصلت فيها كل الجهود إلى طريق مسدود يقتضي علينا أن ننهض من أجل حمل الرسالة الإلهية على الوجه المطلوب ونترك الألاعيب السياسية قبل أن يحيط بنا الغضب الإلهي.

إن الحل الوحيد هو أن نصرف جهودنا في سبيل الله حقاً وإظهار عمل النبوة من جديد على ظهر الأرض، وفي نهاية هذا الكتاب نريد أن نتقدم للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمشروع يتضمن خطوات عملية محددة لمعالجة الأزمة الطارئة للعمل الإسلامي في العصر الحديث، ويسعد المؤلف أن يتلقى ردوداً إيجابية من كل الذين يرغبون نصررة الرسالة الإلهية بمنهج النبوة وهدايتها الخالصة تحقيقاً لوعده الحق:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

(الأنبياء : 107)

(15) البداية الصحيحة

أولاً / إيقاظ الوعي الرباني :

لقد وضع حديث رواه ابن عبد البر حقيقة هامة وهي اختفاء العلم على مستواه الرباني وإن بقي في مستواه الظاهري (المعلومات).

عن جبير بن نفير، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال : بينما نحن جلوس عند النبي (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم إذ نظر إلى السماء، فقال: "هذا أوان يرفع العلم فيه، فقال رجل من الأنصار، يقال له زياد بن ليبيد: يرفع عنا يا رسول الله، وفيما كتاب الله، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا، فقال رسول الله: إني كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، وذكر له ضلالة أهل الكتاب وعندهم ما عندهم من كتاب الله" فلقى جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلى، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال : صدق عوف، ثم قال شداد: هل تدري ما رفع العلم ؟ قلت لا أدري. قال: ذهاب أوعيته. قال : هل تدري أي العلم يرفع؟ قلت لا أدري. قال : الخشوع حتى لا يرى خاشعاً.

(جامع بيان العلم وفضله 1 / 184)

إن غاية الهداية القرآنية هي تزكية العقل، ليكون على استعداد كامل للعمل الصالح، وكل عمل من الأعمال الصالحة أثر من آثار العقل الخاشع وهو الوعاء الحقيقي للعلم الرباني، فالعلم لا يختفي باختفاء الوحي لأن الله قد تعهد بحفظ كتابه القرآن كاملاً من التحريف، ولكن اختفاءه يتم في نفسية الذين يرثونه وهذا معنى : "ذهاب أوعيته". فليس اختفاء العلم إلا فقدانه على مستوى الخشوع "حتى لا يرى خاشعاً".

وتجديد الدين لا يبدأ من الخارج بل يبدأ من داخل النفوس بإيقاظ إحساسها بالحقيقة الأبدية وعدم بناء وعيها على أساس الأماني الفارغة والوعي الزائف :
(لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

(النساء : 123)

إن بناء وعي غير زائف بالدين لا يمكن إلا عن طريق التفكير والتدبر في كتاب الله، وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) في جو حر يعتمد المشاركة ليساعد العقل على النمو. لأن أساس الانحراف ينشأ في جو الجمود العقلي، وهو ناجم عن أسلوب التلقين والحفظ

بدون تدبر، وأخذ المعلومات بدون الإحساس بها، كما يحدث في المؤسسات الدينية التربوية التقليدية، وأخطر من ذلك أن تكون المواد المقدمة للتربية نفسها غير مفيدة، وغير علمية، كما هي شأن تلك العلوم التي تركز على المسائل الخلافية، واستقراغ الجهد في كتب الفروع ذات الطابع الفني، والقياسي، مما جعل المتأثرين بهذا المنهج يفقدون روح الهداية القرآنية، فظهر الدين عندهم على مستوى القسوة، ونتيجة هذه القسوة يتحول الدين من رسالة تعتمد الحوار العقلي، إلى محكمة تعقد للحكم والإدانة، ومن خطاب للعقل والفطرة إلى خطاب يغذي العواطف السلبية، ومن دعوة للوحدة والتضامن والتآلف إلى دعوة للتمزق والتشردم والخلاف.

وبدلاً من أن يرشد العقل العاطفة الدينية ويرسم لها طرق التعبير، والسلوك الصحيحة يتحول العقل أسيراً لعاطفة عمياء وسطحية في معظم الحالات.

والاغتراب مجال رحب لظهور وعي زائف بالدين، ذلك الدين الذي يقدم في شكل خرافي وقائم على الأمانى والأوهام، وليس على الحقيقة والعقل. وحين يصل الأمر إلى هذا الحد يتحول الدين كأداة لعاطفة سلبية يقوم على التعصب. وما هو التعصب ؟ إنه قبول فكرة على أساس غير عقلي وحقيقي، ويتحول الدين الذي أخذ على المستوى اللاعقلي مدعاة لأعظم انحراف فهو لم يتكون في الوعي بطريق التفكير، والإيمان بدون تفكير يظهر في صورة عنف وقسوة لأن ضياء الإيمان ونوره هو التفكير. وإيمان الدعاة على الخصوص يقتضي أن يكون على مستوى التفكير لا التقليد.

والخطوة التالية التي يقتضي اتخاذها (وهي خطوة تربوية بالدرجة الأولى) تتمثل في تعميق الوعي الديني، لأن المستوى السطحي للوعي هو الذي أنشأ أزمة فهم وتطبيق الدين في العصر الحديث، والأسلوب الأمثل، لذلك هو إعادة الاعتبار الرئيسي لدراسة القرآن والسيرة وتعاليم الرسول وحياة الصحابة الأبرار، رضوان الله تعالى عليهم، وجعل هذه المصادر هي المنبع الحقيقي لدين الله، بالإضافة إلى ذلك إدخال مادة طرق البحث والمناهج العملية المعاصرة ومادتي علم النفس والتربية، ودراسة التوحيد من خلال العلوم الحديثة بدلاً من علم الكلام القديم ويقتضي أن يكون القائمون على تدريس مادة التربية الدينية، من ذوى العقلية الدينية العميقة والقادرين على التفكير العملي الإيجابي، وممن يمكنهم الرد على التساؤلات المثارة والمتعلقة بقضايا وتحديات العصر الحديث، وإعداد بحوث ودراسات في هذا المجال. إن أزمة التعليم الديني في الوطن العربي ناجمة عن أسلوب التدريس، وكذلك من نوعية المادة المقدمة، فأسلوب التدريس

الذي لا يعتمد المشاركة والحوار لا يمكنه أن ينجب عقولاً حية قادرة على التدبر والتفكير المستقل وهذا الأسلوب هو نفسه الذي تسلكه الجماعات الدينية المغلقة التي تستغل العاطفة لاستهواء العقول واستغلال روح النعمة وظروف الاغتراب الاجتماعي والحضاري لتدفعها في طريق مسدود وهي لا تريد أن تعتبر أنه ليس بطريق الرسول نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم).

أما السبب الثاني، فيكمن في نوعية المادة المقدمة في مجال التربية الإسلامية، فهي مادة في معظمها خالية من المعاني الحقيقية، وإما في أسلوب قياسي فني عقيم فارغ، وهو الأسلوب الذي دونت فيه العلوم الإسلامية في العصور المتأخرة، وفي الحالة الثانية تكون المادة في أساسها ذات أسلوب إنشائي عاطفي، وبلاغي أدبي، مع أنها تتعامل مع حقائق دينية في حاجة إلى إظهارها في أسلوب علمي حقيقي، وهو ما يعصم من الانحراف بها عن هدفها، وفي النوع الأخير ظهرت المشكلة على أعلى مستوياتها في الأشرطة العاطفية التي توزع سراً وجهراً، وتقدم دين الله في شكل حماسي يقع تحت تأثيره النشء في مقبّل أعمارهم عندما تكون حساسيتهم فائقة للمثل العليا فيكون هذا التأثير فيهم دافعاً لهم إلى المبادرة للعمل بدون تفكير، ونتيجة لصدقهم يدفعون حياتهم ثمناً لذلك بينما أولئك الذين ملئوا تلك الأشرطة يعيشون متنعمين في ظل المكانة الدينية التي أوجدتها الكتابات الإنشائية أو الأشرطة العاطفية الفارغة من الحقيقة والهدف الصحيح.

إن أهم مسؤولية تقع على علماء الإسلام، ودعاته هي في تبصير الشباب بمغبة الطرق التي يسلكونها، لإقامة الدين، والخطوة العملية هي تقديم مادة علمية في مجال الدين تعتمد على الحقيقة والنصيحة الصادقة وإلا فإن مستقبل الإسلام في الأرض سيدفع ثمناً باهظاً مقابل الأعمال التي تقوم عقبة في سبيل انتشاره، فبسبب تلك الأعمال يحرم المسلمون الدعاة منهم على الخصوص من الظروف المواتية للقيام بواجباتهم ويتيح ذلك الوضع في نفس الوقت لسلطة إبليس أن تنتعش بسبب حماقة الذين يعملون بدون عقل وبدون مصداقية شرعية وعملية وبدون فهم لظروف العصر لأن سلطة إبليس على الإنسان تنشأ عندما يسود التعصب، وانعدام التسامح وقطع الحوار بين الداعية والمدعويين، وتذكية الكراهية والنزعة العدوانية، باستغلال العواطف الدينية عن طريق القوة المزيفة، التي تنشأ نتيجة الانخداع بالمظهر الديني الخارجي، وفقدان القدرة على التفكير، واستخدام العقل في تبصر، واستقلالية.

كل ذلك يجعل من الأباطيل حقائق ومن الحقائق أباطيل لمن ينساق بدون تبصر وراء دين الأمانى، والأوهام الذي ينشأ من نفسية الفخر وتعظيم النفس بدلاً من دين التواضع وتعظيم الخالق وحده، ويقدم اليهود أسوأ مثل على الأسلوب الخاطئ لفهم وتطبيق الدين، ويقدم صحابة رسول الله أروع مثل، وأصح طريق، لفهم الدين وتطبيقه، ولهذا جعل الله إيمان الصحابة مثلاً أعلى للإيمان :

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(البقرة : 137)

إن تفويض سلطة إبليس لا يتم إلا عن طريق زرع روح التسامح، ليقوم الدين على أساس النصيحة لا التكفير، والتفكير لا التعصب والدعوة لا الخصومة السياسية، والحوار لا الإرهاب، والتواضع لا الفخر، إن هذا الأسلوب سوف يظهر عمل النبوة ويعطيه مكانته اللائقة به كرسالة لإنقاذ الناس من النار ورحمة لهم، وتلك هي خطة الله الدائمة، ولا ريب أن غضب الله سيحيط بنا لو انشغلنا بمنتهى الحماسة في المعارك السياسية ضد الأنظمة السياسية بدلاً من القيام للعمل في مجال الدعوة إلى الله على منهج القرآن :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا دُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35))

(فصلت : 33 - 35)

بالإضافة إلى هذا الخطأ، نجد أن المفكرين المسلمين المعاصرين أو زعماء الحركات الإسلامية الحديثة، لم يراعوا التطورات الحديثة التي وقعت لأول مرة في التاريخ البشري وهي غلبة الفكر المادي والعقلية الإلحادية، إذ ظنوا أن سيطرة الدين على عقولهم كافياً لتطبيقه كنظام حضاري، ولم يتبينوا أن هذا الهدف لا يمكن إتمامه في ظل غلبة الحضارة المادية الحديثة، وإنما الأمر يتطلب إنهاء عهد تاريخي وبدء عهد آخر وإحلال الحضارة المغلوبة محل الحضارة الغالبة، والحقيقة أن الله قد رتب كل الأحوال لظهور الإسلام مرة أخرى عن طريق سيادة التفكير العلمي، وتأييد الكشوفات العلمية لقضية التوحيد، ولم يكن المسلمون بحاجة إلى معجزة أكثر من معجزة الصمت والأعراض عن الفتن السياسية كلياً لتظهر كل إمكانيات وفرص انتشار الإسلام في المعمورة ولكن المأساة المحزنة أن الحركات الإسلامية المعاصرة عملت ضد كل

الفرص والإمكانات، ولم تبصر خطة الله وتدبيره الحكيم وانطلقت من عاطفة سلبية وتخطيط تقليدي لتقحم الإسلام في معارك زائفة وتدفعه إلى مواجهة الظروف الصعبة نفسها التي قضى عليها جهاد الرسول والصحابة في بدء الإسلام، وصارت السلطات في كل مكان تنظر إليه في المنظور السياسي باعتباره عامل معارضة أو إرهاب لا عامل سلم : "الإسلام = الإرهاب".

إنه وفي نفس اللحظات التي وصل فيها التطور التاريخي إلى منتهاه وفتح لنا آفاقاً للدعوة انشغلنا بمنتهى الحماسة في حرب سياسية لن يخرج المسلمون منها بنتيجة ما دينياً أو دنيوياً. إن البديل الوحيد لتلافي هذا الخطأ هو أن نترك الألاعيب السياسية بصورة كاملة ونبدأ على الفور بالعمل على إبلاغ رسالة القرآن والسنة إلى سكان المعمورة لتأدية واجباتنا (كشهداء على الناس).

ثانياً / روح الحديبية :

إن الدعوة ليست نشاطاً جامداً وسلبيّاً كما يظن معظم الناس إن الدعوة هي في جوهرها عملية إيجابية من كل الوجوه فهي عملية سلمية لأن في العملية السلمية يكمن انتصار الإنسان على نفسه، وعندما ينتصر الإنسان على نفسه يقضي بصورة تلقائية على كافة الشرور الخارجية الناجمة من الغضب وردود الفعل وبهذا فهو يطفئ النار التي يوقدها الشر بسبب أو آخر : إن الحرب التي أوقدها التعصب وذكاها إبليس على الرسول وأصحابه واضطر فيها الرسول وأصحابه إلى أخذ موقف القوة والمواجهة الجريئة، وهي خطوة سلمية من كل الوجوه ، هذه الحرب قد انتهت في (الحديبية) عندما أدرك الرسول إمكانيات جديدة لم تكن قد ظهرت من قبل في بدر – والخندق وهي إمكانية السلام. وكان عقد ذلك الاتفاق مع قريش فتحاً مبيناً لأنه قد استنفد التعصب قواه الحيوانية وبدأت المعركة مفتوحة في نطاق آخر نطاق الدعوة السلمية وهي المجال الذي لا ينافس – لأن سلاحها الحقيقي أقوى من أسلحة الحديد والنار وهو سلاح الفطرة والعقل والقرآن – فمن يكون له قدرة ومعرفة على استعمال هذه الأسلحة يستطيع أن يقهر كل قوة، ولذلك كان أعظم فتح الإسلام هو فتح الدعوة وليس فتح القوة :

إن درس الحديبية الذي قدمه لنا الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في السنة السادسة للهجرة هو الحل الأمثل لقضايانا الداخلية والخارجية فعلى المستوى الداخلي نرى أن توفير الفرص للشباب والنشء الجديد في مختلف مجالات العمل والأنشطة

والتعليم هم أهم وسيلة لتقليل المشكلات الناجمة عن الظروف القائمة في معظم أقطار الوطن العربي والعالم الإسلامي، فعندما تموت المشكلات الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تحسين وتوفير الفرص سوف يجد الشباب المتحمس مجالاً لتصرف طاقاته في البناء والتعمير بدلاً من العنف والتخريب. لقد طبقت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية روح الحديبية بعد هزيمتها الساحقة، وكان الشباب الذي غذيت فيه الروح القتالية في الحرب أكبر مشكلة لها لأن الروح القتالية إذا لم تجد مجالاً خارجياً لتصرف طاقاتها تتحول إلى الداخل في حركات عنف وتدمير وتخريب واختارت اليابان طريقاً إيجابياً وهو فتح الفرص أمام الشباب في مجالات البناء والتعمير الاقتصادي والصناعي واهتمت بالتعليم بالدرجة الأولى حتى إنها وضعت مخططاً لذلك لتجلب أفضل الكفاءات العلمية إلى حقل التعليم بأن منحت المدرسين مرتبات الوزراء وأعطتهم صلاحيات واسعة وفتحت باب المنافسة على مصراعيه أمام الطلبة المتفوقين وفي خلال ربع قرن فقط أعادت هذه الخطة اليابان إلى مصاف الدول الكبرى وهذه المرة ليس عن طريق الحل العسكري بل الحل الصناعي والاقتصادي وهي قوة العصر بل لا يمكن أن تقوم أية قوة بدون هذه الدعامة.

ثالثاً / تبين خطأ التفسير السياسي للدين:

إن خطورة التفسير السياسي للدين في العصر الحديث جعل - الإسلام - يواجه للمرة الثانية وضعاً حرجاً بعد أن زالت العقبات القديمة بفضل جهاد الرسول والصحابة وهذا الوضع الحرج الجديد نلمسه في تخوف الدول والحكومات الإسلامية وغير الإسلامية من الإسلام السياسي حيث أصبح في نظرهم يمثل وجهاً للمعارضة والخصومة السياسية إن لم يكن الإرهاب، فإذا قام فرد أو جماعة ما من أجل الدعوة للإسلام أو الإصلاح الداخلي فسرعان ما تراقب السلطات القائمة نشاطه وقد تقوم باعتقالهم، والسبب يرجع إلى الخلفية الجديدة التي كونها الصدام مع السلطات السياسية باسم إقامة الدين وهو النهج الذي سلكته الحركات الإسلامية المعاصرة في كل مكان. ولقد نتج من هذا أيضاً تضييع كل الإمكانيات الغنية والمدهشة التي أوجدها العصر الحديث لنشر رسالة الإسلام، وبدلاً من الاستفادة من هذه الإمكانيات قام الزعماء المسلمون في العصر الحاضر بتضييعها، ولم تستفد منها سوى الحركات المعادية للإسلام حيث كانت تخطط وفق مقتضيات العصر الحديث فنجحت جهودها في توطيد

أفكارها وأديانها على امتداد القارات ويكفي مثلاً على ذلك نجاح حركة التبشير المسيحي.

وعلى سبيل المثال ورد في دائرة المعارف المسيحية أن الكنيسة المسيحية أنفقت عام (1985) فقط مائة وسبعة وعشرون بليون دولار في نطاق نشاطها التبشيري في العالم وذكرت دائرة المعارف المسيحية أيضاً أن الكنيسة المسيحية تصدر (21,000) دورية منشورة على ورق ممتاز وطباعة راقية وتبث برامجها من خلال (1580) محطة إذاعة مرئية ومسموعة وقامت بتوزيع (64) مليون نسخة من الأناجيل عام (1984) فقط وأن عدد الذين دخلوا في المسيحية في العقود السبعة الأخيرة (115,900,000) نسمة وكان لها عام (1985) ربع مليون مبشر في أفريقيا وآسيا فقط يتبعون (3500) منظمة يساعدهم ثلاثة مليون ونصف مساعد مبشر من السكان المحليين وهكذا يتبين أنه لا وجه للمقارنة بين وعي الكنيسة المسيحية بالوسائل العصرية لنشر تعاليمها وبين وعي الحركات الإسلامية التي رصدت كل نشاطها في الجبهة السياسية وليس هناك وجه للمقارنة بين نوعية التمويل الذي يقدمه المسيحيون دولاً وأفراداً للكنيسة ومستوى التمويل الذي يقدمه المسلمون على مستوى الدول أو الأفراد لرسالة الإسلام بل إن الأمر أشد خطورة إذ أن مصارف الغرب تكنز مليارات الدولارات للأفراد والدول الإسلامية، ولا ينفق منها شيء في سبيل الله، فهل يا ترى ستنتفع هذه الكنوز أصحابها في الآخرة عندما يحيط بهم وعيد الله الرهيب :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(آل عمران : 180)

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَدَقُّوْا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35))

(التوبة : 34 - 35)

وبأي حق ننتظر نصر الله ونحن نبخل على دينه ورسالته بما يجود به أهل الباطل على أديانهم وكيف ننتظر نصر الله ونحن نضيع أموالنا في الترف واللهو ولا نهض من أجل دفع الثمن الغالي من أجل نشر دين الله في الأرض، بل إن واقع الحال يدل على أننا

قد نزل بنا الغضب الإلهي بسبب تخليتنا عن رسالة الدعوة وانشغالنا بالمعارك السياسية الطاحنة بيننا وتضييع أموالنا في اللهو والترف.

رابعاً / منظمة عالمية للدعوة :

إن الاقتراح الرابع والأخير هو الاقتراحات التي أشار إليها الداعية الإسلامي (وحيد الدين خان) في شأن تعميم تجربة المركز الإسلامي بكيغالي.

(أنظر المقالة السابقة : على طريق تاريخ جديد)

إذ يقول : "إنني أعتقد أن أكبر عمل نقوم به هو أن تعمم هذه التجربة على نطاق واسع. وذلك لإبعاد الشباب المسلم عن النشاطات السلبية وتوجيههم إلى مجالات العمل البناء المثمر إلا أن تحقيق هذا الهدف يتطلب جهداً وعملاً مخططاً ... إنني أقترح أن يتم إنشاء منظمة دائمة وذلك بهدف تدريب الجيل الإسلامي الجديد للقيام بأعمال بناءة ومثمرة ويمكن لهذه المنظمة أن تقوم بعملين في نفس الوقت :

أولاً : إنشاء شعبة لتأليف ونشر الكتب الإسلامية بأسلوب علمي هادف تقوم بالتعريف بالإسلام ولا تستخدم التعبيرات المتطرفة وذلك بهدف إبعاد الجيل الإسلامي الجديد عن سياسة الصدام والصراع وحمله على التفكير بأسلوب بناء.

ثانياً : إنشاء معهد للتربية لإعداد نخبة من الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم وفق منهج تربوي خاص في دورات تدريبية قصيرة.

ثالثاً : تأسيس (مركز إسلامي عالمي للدعوة الإسلامية) يقوم بتنفيذ التخطيط لحركة الدعوة على أعلى مستوى عصري شريطة أن يكون مستقلاً على أي نفوذ سياسي وأن يبتعد كلياً عن ممارسة العمل السياسي لكي يقوم بنشاطاته الجبارة بدون عقبات محلية أو دولية..

"لقد أنشأ الميثرون النصارى مراكز لتبليغ دينهم يضم كل مركز منها مساحات عظيمة شاسعة. يمتلكون فيها محطة للإذاعة ومجموعة من الطائرات وجامعات بداخلها وما دمننا لا نؤسس مركزاً عالمياً على هذا المستوى وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجد عذراً نقدمه أمام الله في تقصيرنا في تقديم وتبليغ دعوة الحق. يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة تجهز بأعظم الوسائل اللازمة للنشر والتوزيع تمتلك

جامعتها الخاصة بها ومكتبتها الكاملة، وتمتلك هيئة كاملة تختص بالبحث والتأليف وداراً للنشر بكل اللغات ويجب أن تتوفر لها محطة للإذاعة وعدد من الطائرات، أي يمكن أن نستفيد من جميع ما هو على أرض الله وما يمكن الاستفادة منه في سبيل نشر الدين. هذا مجرد حلم إلا أن الكنز الذي فتحه الله على المسلمين جعل من السهل عليهم إنشاء مثل هذا المركز، إذ أن قليلاً من الوسائل المتوفرة حالياً يكفي تماماً لإقامة مثل هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى.

وأهم هدف للمركز هو إعداد أفراد على أساس مقتضيات ومستلزمات العصر الحديث ولا يمكن أن يتحقق هذا عن طريق معسكرات التربية المعروفة حالياً بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث أسلوب وطرز وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التي تتعارض مع الإسلام".

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المذهلة من أجل تربية دعائها وأنفقت الآلاف من الدولارات، ومنذ عشرين سنة وجه الداعية وحيد الدين خان نداءً للأمة الإسلامية من أجل إقامة مشروع المركز الإسلامي العالمي للدعوة وحتى هذه اللحظة لم ينهض أحد لتلبية هذا النداء مع أنه في نفس الوقت قد صرفت الملايين من أجل شراء جزر في بلدان الغرب لإقامة مشاريع للشيطان.

(كلمة أخيرة)

حين جمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأول مرة قومه ونادى فيهم بمقولته المشهورة : "أنفذوا أنفسكم من النار" انبرى له عمه أبو لهب قائلاً : "تباً لك ألهذا جمعتنا !". فقد كان موقف أبي لهب يعبر عن الاستهانة التامة بالأمر الذي جمع له رسول الله قومه وهو "إنقاذ الناس من النار" فنزل القرآن مباشرة يتوعد أبا لهب بالهلاك :

(سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) (المسد : 3)

وهذا الدرس عبرة لمن يستهين بقضية الآخرة التي هي أهم قضية ولخطورتها أطلق عليها القرآن اسم "النبا العظيم" :

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68))

(ص : 67 - 68)

بل ليس أمامنا لنيل نصرة الله الموعودة في القرآن :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

(محمد : 7)

إلا توجيه جهودنا المتاحة لمسؤولية الدعوة ونشر الإسلام بين الشعوب والأمم في كل مكان لإتمام الشهادة وإقامة الحجة عليهم. أما الانشغال عن هذه المسؤولية فسوف لن يفيدنا شيئاً، وسوف تحيط بنا خسارة الدنيا والآخرة. ومن يتأمل أحوال زعماء المسلمين وجهودهم خلال السنين الماضية يجد أنها قد صرفت في ميادين السياسة الحزبية أو الخصومات الفقهية والكلامية، أو نشر البدع والخرافات الطرقية. بينما لم تنل الدعوة الحقيقية للإسلام اهتماماً يذكر عندهم بل تركوا ساحة الدعوة لدين الحق خالية أمام دعوات الباطل، فنجحت جهود أعدائهم وفشلت جهودهم. وعلى سبيل المثال :

منذ مائة وخمسين عاماً فقط نشطت جهود التبشير المسيحي في أفريقيا واليوم يبلغ عدد المسيحيين في أفريقيا أكثر من مائة وعشرين مليون نسمة حتى أصبحت المسيحية ظاهرة أفريقية كما وصفها أحد المبشرين بعد أن كانت مقتصرة على عدد قليل من البيض. وظهرت عدد من الدول المسيحية التي تكونت بجهود التبشير مثل : رواندا وزائير وبورندي وأوغندا وملايو وزامبيا وكينيا وغيرها.

كما تُرجم الإنجيل إلى أكثر من أربعمئة لغة أفريقية محلية. وتعمل مراكز التبشير المتعددة لتحويل البقية من الوثنيين - وهم أكثر من مائة وعشرين مليون نسمة - إلى المسيحية، وتتنافس كافة البعثات النصرانية في سبيل هذا الهدف ليلاً ونهاراً. وينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة مستفيدين من وسائل العصر الحديث، فكانت أعمالهم تتقدم بالسرعة نفسها التي يتسم بها هذا العصر فهم يستخدمون أغلى الوسائل، فلهم مطارات، وطائرات خاصة مجهزة للعمل في المناطق النائية كالمناطق القطبية ولهم مطابع في كل مكان لطبع ونشر تعاليم الإنجيل بكل لغات العالم، وإذاعات تبث برامجهم بكل اللغات، هذا فضلاً عن مراكزهم الثقافية والاجتماعية ومؤسساتهم التعليمية المنتشرة في كل مكان لتخريج الدعاة وإعدادهم ونشر الأفكار. وتمثل حركات التبشير آلاف المنظمات الدولية التي تعمل وفق قوانين واتفاقيات دولية تنظم أعمالها، وليس لدينا نظير لهذه المؤسسات في العالم الإسلامي. ولا نملك الوعي الكافي للعمل في ميادين الدعوة، ولا نستفيد من وسائل وإمكانيات العصر لنشر الإسلام.

فجهودنا تحرث في صحراء السياسة القاحلة أو المجادلات الفقهية والكلامية. والحقيقة أن الدعوة إلى الإسلام ونشره بين غير المسلمين هو العمل الوحيد الذي لم ينل بعد اهتماماً يذكر عند القيادات الإسلامية مع أن نصرته الله لهذه الأمة متعلقة بتأديتها هذا الواجب الأساسي الهام.

فلو صرفت جهودنا في سبيل الدعوة لكانت البدء في إحياء رسالة الإسلام، وإظهار عمل النبوة من جديد على وجه الأرض. وهو سبيل نصره الله الموعودة في القرآن، والسبيل الوحيد لإعادة سيادة الإسلام من جديد وإظهار دين الله على المستوى العالمي تحقيقاً لوعده الصادق :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

(الفتح : 28)

نصرة الله

لقد تعهد الله بنصرة الذين آمنوا في الدنيا والآخرة بصورة قاطعة :
(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52))

(غافر : 51 - 52)

إن الله عندما تعهد بنصرة رسله والذين آمنوا بهم ونصروهم، أعطى بذلك أعظم دليل على توليه بصورة مباشرة قضية الدعوة إلى دينه وتبليغ رسالته وجعلها أساس العصمة لرسول الله ومن تبعه في هذا العمل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(المائدة : 67)

فالدعوة إلى دينه أهم عمل في نشاط المؤمنين أتباع الرسول بعد إقامة التوحيد في أنفسهم، وهي العمل الذي ينالون به النصره الدنيوية والأخروية (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ) والدعوة هي العمل الذي يحرك نصره الخالق سبحانه وتعالى وعندما يصل الأمر إلى خطورته القصوى على المسلمين كما هو الحال الآن فليس أمامهم إلا المبادرة إلى نصره الله : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(محمد : 7)

ونصرة الله لها شواهد وأدلتها القرآنية من حياة الرسل وأتباعهم ومن يقوم بعملهم إلى يوم القيامة. والمقصود أن سبب الفتح والنصر له جانبان جانب من قبل المؤمنين بأن

يكونوا على أعلى مستوى من الإيمان والاتحاد والتضامن وإعداد القوة المرهبة والقيام في نفس الوقت بنصرة دين الله النصر اللائقة به في هذا العصر بأن تدفع الأمة جزءاً من إمكانياتها الاقتصادية النفطية وغيرها التي حباها الله بها في سبيل نشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض هذا من جانبها ومن جانب الله وعده الحق:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

(الصف : 13)

أهم المصادر والمراجع للبحث :

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول - تحقيق عبد القادر الأرناؤوط نشر دار البيان القاهرة 1969 م.
- تقي الدين أحمد ابن تيمية.
- مقدمة في أصول التفسير - تحقيق عدنان زررور، بيروت مؤسسة الرسالة 1972 م.
- منهاج السنة، ط الأولى، القاهرة.
- رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تحقيق صلاح الدين المنجد - ط (1) بيروت دار الكتاب الجديد 1976 م.
- اقتضاء الصراط المستقيم - مطابع المجد التجارية - السعودية رسالة العبودية : دار الكتب العلمية ط (1) بيروت 1981 م.
- الإيمان : نشر المكتب الإسلامي - دمشق.
- ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله - جزءان - دار الفكر - بيروت.
- ابن القيم الجوزية.
- أعلام الموقعين : تحقيق عبد الرؤوف - دار الجبل - بيروت - 1973 م.
- ابن منظور : لسان العرب، طبعة دار صادر - بيروت.
- أبو داود : السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط 2 مطبعة السعادة القاهرة 1950 م.
- الشاطبي : الموافقات الأصولية، ط 2 - دار المعرفة بيروت 1975 م.

- الطبري، محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق أحمد شاکر - ط الأولى - دار المعارف - مصر 1969 م.

- الصابوني : محمد علي :

- مختصر تفسير ابن كثير - دار القرآن الكريم بيروت 1981 م.

- صفوة التفاسير (ط 4) دار القرآن الكريم - بيروت 1981 م.

- أبو الأعلى المودودي :

1- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه : ط 3، دار الفكر الحديث، بيروت - 1968 م.

2- المصطلحات الأربعة - الناشر - دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

3- نظرية الإسلام وهديه : تعريب جلال حسن الإصلاحي دار الفكر 1967 م.

- وحيد الدين خان :

1- قضية البعث الإسلامي - دار الصحوة - القاهرة - ط (1).

2- حكمة الدين - دار المختار الإسلامي - القاهرة ط.

3- واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام - دار الصحوة - القاهرة - ط (1).

4- التفسير السياسي. مكتبة الرسالة - دلهي - ط (2).

5- خطأ في التفسير. مكتبة الرسالة - دلهي.

6- الإسلام : مكتبة الرسالة - دلهي - ط (2).

7- إحياء الإسلام : مكتبة الرسالة - دلهي - ط (1).

8- الدعوة الإسلامية - مكتبة الرسالة - دلهي.

تم بحمد الله

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
11	1- الرسالة القرآنية
23	2- الرسالة الربانية
54	3- خطأ في المنهج
75	4- نوعية التحريف
83	5- إعلان الحقيقة
94	6- رسالة الجهاد
104	7- الشريعة والعدل
112	8- قضية حساسة
122	9- الدين النصيحة
134	10- سنة الله
142	11- خطة الله
154	12- الفتح المبين
161	13- النظرة الربانية
168	14- الداعية المثالي
178	15- البداية الصحيحة
191	16- المصادر

التعريف بالمؤلف

محمد سليمان القائد

من مواليد 1949م، بمدينة يفرن، وهو من أهل الثقافة والكتابة، وكان خطيباً يؤم المصلين في صلاة الجمعة في أحد مساجد مدينة طرابلس في التسعينات. وله كتب عدة في الفكر الإسلامي، بعضها نشر وبعضها لم ينشر.

كان محمد سليمان القائد داعياً إلى الله بالحكمة والكلمة الحسنة، وغاب في غياهب السجن عام 1991م، ونحسبه أحد الشهداء في مذبحة أبو سليم 1996م.

وكان رجلاً نبيلاً وذمّت الخلق قال صديقه وزميله الكاتب المعروف الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، في رثائه: (الكاتب والمفكر والإنسان الجميل الخلق الهادي والورع محمد سليمان القائد كان واحداً من ضحايا مذبحة أبو سليم ... إن الراحل رجل من أكثر من رأيت من البشر نبيلاً وسلاماً وجمالاً إنسانياً ولطفاً وعذوبة، حتى صوته لا يكاد يخرج من بين شفتيه إلا همساً، ولا أراه إلا والابتسامة تغطي وجهه، ولم أسمع منه يوماً كلمة نابية أو كلمة شكوى أو ضيق من زميل رغم ما كانت تملأ أجواء العمل من مشاحنات وخصومات، إلا محمد سليمان القائد الذي كان أشبه بأنسام هادئة عطرة عبرت هذه الحياة، رضوان الله على روحه).

قال عنه أستاذه العلامة وحيد الدين خان: (كان رجلاً ذو نوعية وكفاءة فريدة، فهو ليس بالرجل العادي لقد ولد بنفسية استثنائية وكان شخصاً على قدرٍ عاليٍ من التعليم .. لقد كان رجلاً فذاً وعجيباً..).

سيرته العملية /

- ليسانس آداب لغة عربية / جامعة بنغازي.
- دبلوم عام في الدراسات الإسلامية / كلية التربية / جامعة طرابلس.
- ماجستير آداب لغة عربية / جامعة الخرطوم عام 1984م.
- رسالة الدكتوراه في (الطاغوت) توقفت بسبب اعتقاله.

الخبرات العملية /

- باحث ومحرر صحفي في شئون الفكر والحضارة الإسلامية 73-79م، نشر خلالها عشرات الدراسات والمقالات في الفكر والحضارة الإسلامية.
- مدير المركز الثقافي الإسلامي بالنيابة في رواندا (79م-82م)، تم مدير الإدارة الثقافية بالمركز المذكور 83م إلى 86م. وقد مارس نشاط الدعوة خلال عمله بالمركز وكان سبباً في اعتناق عشرات الآلاف للإسلام في رواندا.
- استاذ جامعي ومؤسس ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة المفتوحة طرابلس.

ومن أهم الأنشطة التي تولاهما خلال فترات نشاطه:

- 1- رئيس تحرير مجلة الرسالة التي تصدر باللغة العربية والكنينية في رواندا للتعريف بالإسلام.
- 2- تدريس مواد التربية الإسلامية بمعهد المركز.
- 3- إعداد مناهج التربية الإسلامية بمدارس المركز.
- 4- الإشراف على رسالة المسجد ورسالة الدعوة والدعاة والمعلمين الدينيين ومتابعة نشاطهم لنشر الثقافة الإسلامية وتعميق الوعي الديني.
- 4- الإشراف على مكتبة المركز والمساهمة في إعداد الدراسات والبحوث والمحاضرات والندوات واللقاءات الدينية المختلفة.
- 5- مؤسس ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة المفتوحة 1988 حتى 1991م.

- إضافة إلى اللغة العربية يتحدث اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

من أهم أعماله الفكرية:

- كتاب منهج الهداية .. طبع في القاهرة 1991.
- دراسة حول دخول الإسلام إلى رواندا نشرت بمجلة كلية الدعوة 1991م.
- سلسلة رسائل وكتيبات إسلامية نشرت بالقاهرة 1991م.

- سلسلة من الأشرطة والمحاضرات حول الوعي الفكري الديني.

كتب أعدها ولم تنشر:

- كتاب التربية القرآنية.

- كتاب وثائق حضارية.

- كتاب رسالة الإيمان.

- مقدمة في علم التفسير.

- رسالة الطاغوت.

- مجموعة رسائل فكرية.

رحم الله الفقيد ووهب أهله جميل الصبر والسلوان.

في الختام نشكر الأخوة الذين عملوا من أجل ظهور هذا العمل، وهم أكثر وأخص منهم الشيخ والاستاذ أحمد خليفة حفيانة والاستاذ السنوسي بوزيد ود. عبد اللطيف بونوراه، على جهودهم في مراجعة الكتاب، وكذلك الاستاذ هشام شرف الدين الذي أسهم معهم بصورة غير مباشرة، فبارك الله فيهم جميعاً وجزاهم عنا خيراً.